الحجاج بالإيتوس في شعر عنترة بن شداد

دكتورة/ نداء ثابت العرابي الحارثي
أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة

الملخص باللغة العربية:

الحجاج بالإيتوس في شعر عنترة بن شداد

تهدف هذه الدراسة إلى استجلاء إيتوس عنترة بن شداد العبسي بوصفه استراتيجية فاعلة في قبوله وانتمائه وتأكيد مكانته، من خلال دراسة الإيتوس القبلي للشاعر متمثلًا في صورته في العقل الجمعي العربي في ذلك الوقت التي كونتها حياته ومكانته في قبيلته قبل حريته وبعدها، ودراسة الإيتوس الخطابي للشاعر متمثلًا في صورته التي رسمها شعره؛ حيث تتناغى الصورتان وتجيب إحداهما الأخرى، فعبوديته وسواده وبطولته وفروسيته، وأخيرًا عشقه ركائز ومكانيزمات أصيلة في نجاعة قوله وقبوله، معتمدًا حجتي القوة والقيم على التناوب بينهما، طالبًا التسليم والإخضاع تارة، والإقناع والقبول تارة أخرى، و حصيلة هذا كله ذيوع ذكر وبقاء أثر؛ فلم تخلد الذاكرة العربية شاعرًا أسود مثلما خلدته.

الكلمات المفتاحية:

الإيتوس القبلي – الإيتوس الخطابي – عنترة بن شداد – شعر الحماسة – الشعر الجاهلي

الملخص باللغة الإنجليزية:

Ethos in the poetry of Antarah ibn Shaddad

Abstract:

The current study aims at elucidatingthe Ethosin Antarah ibn Shaddad Al-Absi as an effective strategy in the acceptance, affiliation and the confirmation ofits position. This study aims to achieve this goal through the study of the Ethos represented in his image in the Arab collective mind at the time of his life and on the light of his statuswithin his tribe before and after his freedom. The study also aims to elucidate the poet's rhetorical Ethos, represented bythe image drawn in his poetry. These two images are in harmony where eachrespond to the other. Antarah'sservitude, blackness, heroism, chivalry, and his love are considered the pillars as well asthe authentic mechanisms behind the efficacy and the acceptance of his poetry.It is observed that relies on two arguments: strength and values. He relies onthe alternation between them, asking for submission and subjugation in certain incidents.He also uses persuasion and acceptance in other incidents. All of this led to the widespreadmention and the strong influence of his poetry. That is true as the Arab memory had never celebrated a black poet the way it celebrated Antarah ibn Shaddad Al-Absi.

Keywords: Ethos, Rhetoric Ethos, Antarah ibn Shaddad, Poetry of Enthusiasm, Pre-Islamic poetry

الحجاج بالإيتوس في شعر عنترة بن شداد

يهدف هذا البحث إلى استجلاء إيتوس عنترة بن شداد في بيئته وفي شعره، بوصفه استراتيجية فاعلة في قبوله وانتمائه، وتأكيد مكانته، محاولًا الإجابة **على الأسئلة التالية:**

- ما الإيتوس؟
- كيف كان إيتوس عنترة عنصرًا أصيلًا في تشكيل خطابه ؟
- كيف رسم شعر عنترة صورته بوصفها استراتيجية فاعلة للإقناع؟
- هل كان للإيتوس القبلي تأثير في الإيتوس الخطابي في شعر عنترة؟
- ما الحجج التي استعان بها عنترة في تشكيل الإيتوس ؟
- هل تغني استراتيجية الإيتوس عن باقي استراتيجيات الخطاب الإقناعي في الشعر الحماسي؟

الدراسات السابقة :

كثرت الدراسات حول عنترة وشعره ، وتعددت مناهجها وأهدافها ، وفيما يخص موضوع هذا البحث هناك ثلاث دراسات تتقاطع معه في الهدف العام :

الأولى: الخطاب الحجاجي في معلقة عنترة بن شداد، كمال فواز أحمد سليمان،مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث بغزة، مجلد ٢٧، العدد ٤، ٢٠١٩من ص ٣٣١ إلى ص ٣٤٦، والبحث كما هو ظاهر من عنوانه قد اقتصر على دارسة المعلقة ولم يتعرض الباحث فيه لدراسة الإيتوس في أثناء البحث .

الثانية: الحجاج بالإيتوس في البلاغة الجديدة : مخاطبة الأنثى في معلقة عنترة بن شداد نموذجًا، رانيا جمال عطية، مجلة كلية الآداب،العدد٩٧، ٢٠١٩م، من ص ١ إلى ص ٣١، وظاهر أن هذه الدراسة تقتصر على دراسة المعلقة فقط، وخطاب الأنثى، بينما تعنى دراستنا هذه بجميع أنواع المخاطبين في شعر عنترة في جميع أعماله في الديوان الشعري الخاص به .

الثالثة: آليات الحجاج في شعر عنترة دفاعًا عن حريته وانتمائه تأصيلًا وتفصيلًا، رضا رمضان أحمد، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد٣٦، الجزء الأول، ٢٠١٧م، من ص ٢٩ إلى ص ٦٨.

وهذه الدراسة لم تتعرض مطلقًا لاستراتيجية الإيتوس؛ بل لم تتعرض لأنواع الحجج التي حفل بها شعر عنترة .

من هنا سترصد هذه الدراسة الإيتوس في شعر عنترة بمفهوميه لدى أرسطو وسقراط، فسقراط يرى الإيتوس معطى سابقًا على الخطاب، فيما يسمى الآن بالإيتوس القبلي أو ما قبل الخطابي.

ويرى أرسطو أن الإيتوس حاصلًا من خلال الخطاب وهو إحدى استراتيجياته الأساس، وستكون هذه الدراسة قائمة على مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة .

وتتناول المقدمة التعريف بالموضوع وأهميته ،وتساؤلات الدراسة وأهدافها والدراسات السابقة على هذا الموضوع ومكونات الدراسة .

ويتناول التمهيد تقديم مفهوم عن الإيتوس بتتبع صوره وما قيل عنه في التراث المنطقي والنقدي بشكل موجز.

ويتحدث الفصل الأول عن الإيتوس القبلي، ويهتم بتتبع صوره عنترة التي أكسبته سلطة ومصداقية في مجتمعه.

وتناول الفصل الثاني الإيتوس الخطابي ويركز على صورة عنترة كما صورها شعره، وهو بدوره ينقسم إلى ثلاثة مباحث:

- إيتوس العبد الأسود .
- إيتوس الفارس البطل .
- إيتوس العاشق المغرم.

وتأتي الخاتمة لتقدم أهم نتائج الدراسة .

التمهيد:

الإيتوس المصطلح والمفهوم:

الإيتوس مصطلح مأخوذ من الخطابة القديمة ويشير "إلى صورة الذات التي يبنيها المتكلم في خطابه؛ ليمارس تأثيرًا في المخاطب"(١) فالصورة التي يرسمها المتكلم لذاته هي من أهم استراتيجيات الإقناع ذات الأثر في العملية الحجاجية " فالمتكلم يحاجج بصورته التي ينبغي أن تقع من نفس المتلقي موقعًا حسنًا"(٢).

ويرى أرسطو أنها استراتيجية خطابية تحدث داخل الخطاب وبواسطته، فالإيتوس من وجهة نظره هو" سمات الشخصية التي ينبغي للخطيب أن يظهر بها أمام السامعين؛ ليترك انطباعًا حسنًا، ومعنى هذا أنه ليس مهمًّا مدى صدقها – فهي مظاهر– فالأمر لا يتعلق إذًا بسيكولوجية تعبيرية، بل بسيكولوجية متخيلة، ينبغي أن يكون ما أدل عليه هو ما أريد أن أظهر به بالنسبة إلى الآخر(٣)"وسواء كانت طريقة رسم الذات مواربة متضمنة، أو كانت صريحة في التعبير عن الذات؛ فهي جزء من الإيتوس ولها دورها في عملية الإقناع؛ ذلك أن التشكيك الخارجي في شخصية الخطيب قد يجعله مضطرًّا لذكرها بصورة صريحة" فالسياق الحجاجي يفرض أحيانًا على المتكلم أن يتحدث عن ذاته أو يصفها ويثني عليها وخاصة إذا كانت صورته في السياق الخارجي قد تعرضت لما يشكك في قيمتها(٤)"وهذا ما يتجسد في شعر الفخر والحماسة بصفة عامة وفي شعر عنترة بصفة خاصة لحاجته الماسة للدفع عن مكانته ونسبه " فتقديم الذات في البلاغة اليونانية قام على أساس أنه فعل تأثيري، ومشروع إقناعي مرتبط بنجاعة الخطاب؛ فالإيتوس انطلق من مبدأ أنه يستحيل الإقناع دون أن يظهر الخطيب منذ البداية في صورة توحي بالمصداقية والثقة(٥)".

يقول أرسطو:"والخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يلقى على نحو يجعله خليقًا بالثقة، وهذا الضرب من الإقناع مثل سائر الضروب ينبغي أن يحدث عن طريق ما يقوله المتكلم، لا عن طريق ما تظنه الناس عن خلقه قبل أن يتكلم(٦)" وهو بهذا يرفض تصور سقراط للإيتوس، فسقراط ينظر للإيتوس باعتباره عنصرًا حاضرًا قبل عملية التلفظ في

(١) شاردو ومنغو، معجم تحليل الخطاب، ص ٢٣٠.
(٢) مشبال، خطاب الأخلاق والهوية، حاشية ص ٤٤.
(٣) بارت، البلاغة القديمة، ص ٦٨، ٦٩.
(٤) مشبال، خطاب الأخلاق والهوية، ص١٨٠.
(٥) مشبال، في بلاغة الحجاج ، ص ١٧٤.
(٦) أرسطو، فن الخطابة، ص٢٩، ٣٠.

الخطاب الإقناعي فهو" يرهنه بعناصر مسبقة (مقولة الموهبة) وبمعرفة متسقة قصد بها صاحبها تخليق البلاغة انطلاقًا من سيرة الخطيب[١]" فقد جعل كنتليان –متأثرًا بسقراط – شهرة الخطيب المسبقة بالفضيلة والخلق الطيب قرينة إصداره الكلام الجيد[٢] لذا يرى مانغو أنه " من أجل أن تكون خطيبًا جيدًا لا بد أن تكون أولاً إنساناً جيدًا[٣]"

فصفات الخطيب الخلقية وسمعته بين الناس، وما عرف به من قيم ومكانة هي حجة الخطيب السابقة على القول؛ التي تضمن له القبول والإقناع وتوحي بالثقة والمصداقية لما يقول.

" فإذا كانت اللغة سلطة؛ فإن القوة الدافعة لهذه السلطة هي الحجاجية – وهذه القوة الحجاجية تحصل بفضل إعادة الاعتبار للذات المتكلمة (الكاتب/ الخطيب) – وليس للخطاب نفسه إذ هو ممر وانتقال[٤]".

وبهذا نجد أنفسنا أمام مفهومين للإيتوس، مفهوم سقراط الذي يؤسس لإيتوس قبلي سابق على النص / الخطاب، ومفهوم أرسطو الذي يؤسس لإيتوس خطابي حاصل في النص/ الخطاب، وستجمع هذه الدراسة بين المفهومين؛ إذ نجد أن كليهما كان له تأثير بالغ في نجاعة خطاب عنترة، وما تمخض عنه من مكانة أصيلة في المخيلة العربية على مر العصور.

الإيتوس القبلي:

صورته القبلية المستكنة في مخيلة محيطه قلقة قلق تدافع الضدين، فهو فارس القبيلة الحامي، وهو أسود البشرة ابن جارية مملوكة، فارس أسود، بكل ما للفروسية من مكانة، وبكل ما لانتمائه لجارية سوداء من وضاعة في التصور العربي العام، ثم هو شاعر مفلق، وهذه لا يدافعها مدافع.

سواده / عبوديته

وعنترة بن شداد من أغربة العرب المعدودين[٥]، وهم أبناء الإماء السود خاصة، من هنا شبهوا بالغربان تمييزًا لهم عن باقي الهجناء معلولي النسب من جهة الأم[٦].

(١) الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة ، ص ٩٢.
(٢) الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة ، ص ٩٢.
(٣) مانغو ، مشكلات الحجاج بواسطة الإيتوس، ص ٧٦٩ بتصرف.
(٤) ناصر ، الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية، ص ١١٩–١٢٠.
(٥) البغدادي،خزانة الأدب، ج٥ص ١٤٥.
(٦) انظر :خليف، الشعراء الصعاليك، ص ١٠٩–١١٢.

فالمجتمع العربي عانى من طبقية مدارها الأول (النسب) وصحته من الجهتين الأبوة والخؤولة؛ لذا احتل هؤلاء الهجناء أسفل طبقات المجتمع القبلي.

ومن هنا لم يكن الرجل ليعترف بابنه من أمته الحبشية، ويعده عبدًا لا حرًّا، يقول ابن قتيبة:" وكان عنترة لأمة سوداء يقال لها زبيبة، وكانت العرب في الجاهلية إذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبدوه[١]"

هذا المغمز في تشكيل صورة عنترة في المجتمع يجعل القبول منه محل نظر،ويدعو الشاعر ليحتفل أيما احتفال ليقبل عنه قوله، وليكون محل تصديق وقبول؛ حيث ظل عنترة ردحًا من عمره يعيش تحت وطأة هذه الصورة، غير منفك عن هذه المنزلة، قبل أن يحرره أبوه، ويأخذ مكانته المستحقة انتزاعًا ومكافحة؛ مما يبرر إلحاح عنترة الشاعر على هذه الهنة، يبررها حينًا ويزينها حينًا، ويفخر بها حينًا آخر.

فروسيته وحريته:

تذكر كتب الأدب قصة حرية عنترة وكيف حصل عليها اقتدارًا؛ ووراء هذا إيمان من المجتمع القاص للرواية، والمتداول لها باستحقاق عنترة للحرية؛ بل وذكائه في إدارة معاركه الخاصة، بوصفه مفاوضًا جيدًا، فالحوار الواقع في القصة بين عنترة وأبيه، لا يصور عنترة بطلاً حاميًا فحسب؛ بل ألمعيًّا أجاد التفاوض على حريته، والعرب تقدر الذكاء والدهاء وحسن سياسة الأمور، فالرواية تقول:" وكان سبب ادّعاء أبى عنترة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من بني عبس، فأصابوا منهم، فتبعهم العبسيّون، فلحقوهم فقاتلوهم عمّا معهم، وعنترة فيهم، فقال له أبوه: كرّ يا عنترة! فقال عنترة: العبد لا يحسن الكرّ، إنّما يحسن الحلاب والصّرّ فقال: كرّ وأنت حرّ، فكرّ وهو يقول:

كُـــلُّ امْـــرىءٍ يَحْمِـــي حِـــرَه أَسْـــــــــوَدَه وأَحْمَـــــــــرَه

وَالْـــــــــوارِدَاتُ مُـــــــــشفَّرَهْ[٢]

وتختم هذه الرواية في كثير من الكتب بقولهم" فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه[٣]".

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، ج٢ ص ٢٥٩، وانظر كذلك ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ج١ ص ١١١، وانظر: كتاب أنساب الأشراف ، للبلاذري، ج١٣ص ٢٠٢.

(٢) السابق ، ج٢ ص ٢٤٣.

(٣) السابق، ج١ص٢٤٤، وانظر كذلك لباب الآداب للثعالبي ، ص ١١٩، وديوان المعاني ، العسكري،ج١ص ١١١، والأغاني ج٨ص ٢٥٠.

ورواية مجمع الأمثال تورد هذا الموقف وقد نال به عبلة وليس حريته "يُقَال: إن شَدَّاداً العبسيِّ قَالَ لاَبنه عنترة في يوم لقاء ورآه يتقاعَسُ عن الحرب وقد حَمِيتْ فقال: كر عَنْتَرة، فَقَالَ عنترة: لاَ يُحْسِنُ العبدُ الكَرَّ إلاَ الحلب والصَّرَّ، وكانت أمه حَبَشية، فكان أبوه كأنه يستخفّ به لذلك، فلما قَالَ عنترة لاَ يحسن العبد الكر قَالَ له: كر وقد زوجتك عَبْلَة، فكرّ وأبْلَى، ووَفى له أبوه بذلك فزوجه عبلة[١]"

وقد جمع أبو هلال العسكري بين الجائزتين في روايته حيث يقول:" وكان عنترة هجيناً أمه أمة فاستعبده أبوه، وهذه كانت العرب عادتها في الهجناء فكان يرعى ثم اتخذ سلاحاً وصنع مهراً فأغارت طيئ على عبس فسبوا أهله وجيرانه فركب مهره واتبع القوم ثم جنبهم حتى أتى من أمامهم فما زال يطعن في أعين القوم حتى ردوا عليه أباه وأمه ثم عمه وابنته عبلة ثم قال لا انصرف بأهلي وأترك جيراني فكر عليهم فقتل منهم أربعين فردوا عليه جيرانه وكان يقول له أبوه وعمه كر فيقول لا يحسن العبد الكر وإنما يحسن الحلب والصر يقرعهم بذلك إذ كانوا قد استعبدوه فاستلحقه أبوه يومئذٍ وزوجه عمه عبلة ابنته[٢]".

ورواية الأنباري فيها من اللطف العجب، كانت منه تفسيرًا لبيت عنترة:

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسي وأَبْرَأ سُقمَها قِيْلُ الفَوارِسِ: وَيكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ[٣]

"ومعنى (شفى نفسي) أي اشتفيت حيث قالوا لي أقدم فأقدمت. وقال أبو جعفر: أصل هذا الفرح إنه أقر به أبوه، فلما قالوا (ويك عنتر أقدم)، والذي قال له أقدم أبوه، قال له: ويك عنتر أقدم فاذهب بالحرم والمال! فقال: (العبد لا يحسن الكر، إلا الحلب والصر) فأعاد عليه مرارا، فلما تخوف أن يذهب الحرم قال: أي بني أما ترى؟ قال: الآن نعم. فعندها قال: (وأبرأ سقمها).! فركب فرسه عريانا وأخذ قناته فرد الظعن وقتل من قتل[٤]".

ووراء هذه النصوص قصة مكتمّة من طموح غالب جعل عنترة يزاول المران على السيف والخيل أثناء أدائه لمهامه كعبد مملوك يرعى أغنام القوم، وليس هذا بمستغرب أو مستبعد" فإن الحياة الجاهلية كانت تفرض على أبنائها أدب الفروسية

(١) الميداني،مجمع الأمثال، ج٢ ص ٢٤٤.
(٢) العسكري، ديوان المعاني ، ج١ص١١١.
(٣) الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ٣٦٠.
(٤) عنترة،الديوان، تحقيق مجيد طراد، ص ١٨٤.

وتقديس البطولة لما هم عليه من التنافس القبلي والتعرض المستمر لأن يكونوا غزاة أو مغزوين[١]"

ولعل له محاولات سابقة لأن يلحق بجيش قومه لم تلق قبولًا، وإلا لما استعان به أبوه في هذا الموقف الضيق، ولما أجابه عنترة بما أجابه، خاصة أن كتب الأدب تروي أبياتًا لأبيه يصلح جوابه في هذه الروايات أن يكون عليها، أو تذكيرًا بها، يقول البلاذري:" ومنهم: أَبُو السَّمْهري عنترة بْن عَمْرو بْن شداد بْن معاوية بْن قراد بْن مخزوم الفارس، وأمه زبيبة، سوداء وهو الَّذِي قَالَ لَهُ أَبُوهُ:

مـــــا يحـــــسن العبـــــد الكَـــــرَّ إلا الـــــــــذيار والـــــــــصَّر[٢]

وعلى اختلاف الروايات في هذا الباب إلا أنها تجمع على نقاط رئيسة في تكوين صورة عنترة في المخيلة الجمعية العربية: أنه حامي القوم عندما تضيق بهم الحيل، أنه لوحده بديلًا لجيش كامل، أنه انتزع حريته انتزاعًا بجدارة هو أهل لها ؛ ففروسيته كانت ثمن حريته وانتسابه لأبيه، أنه احتال لينال ما منع عنه.

وهذا يخفي وراءه إيمان جمعي بأنه لولا هذه الملكة (الفروسية) ليس له أن ينتسب لأبيه، وأن هذه المنحة (الاعتراف به) كانت وفاء عادلًا لحمايته قومه، وليس حقًّا مدركًا ظُلم في غمطهم إياه ابتداء؛ لذلك يظل في التصور العربي الذي أعلى عنترة الفارس أي إعلاء حتى أصبح مضرب المثل في الفروسية على الإطلاق[٣]، يظل وراءه ازدراء ثابت للونه وأمه وأخواله باعتبارهم هنة لازمة لا ينفك عنها إلا في ساحة المعركة.

وهناك رواية أخرى عن فروسية عنترة تنافس رواية أخذه لحريته في دورانها في كتب الأدب، وهي تكشف عن دهاء عنترة في سياسة الأمور، وأنه ليس فارسًا فحسب؛ بل خبيرًا استراتيجيًّا في إدارة المشهد العسكري، تقول الرواية أنه سئل عن شجاعته : " فقيل له أنت أشجع العرب وأشدها؟ قال:لا، قيل: فبم شاع لك هذا في الناس؟قال: كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا،وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أدخل موضعًا لا أرى منه مخرجًا، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع، فأنثني إليه فأقتله[٤]".

(١) البستاني، الشعراء الفرسان، ص ٨.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج١٣ص٢٠٢.

(٣) الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ص ٧٦.

(٤) الأصفهاني، الأغاني ، ج٨ص ٢٥١، وانظر: نشوة الطرب ص٥٤٥.

ويروى أن عمرو بن معدي كرب يقول:" ما أبالي من لاقيت من العرب إذا لم يلقني صريحاها وهجيناها، يعني بالصريحين عامر بن الطفيل، وعتبة الحارث بن شهاب، والهجينين عنترة والسليك[١]"

وثالث الروايات في الحديث عن منزلة عنترة في المجتمع الجاهلي والتي دخلت في تكوين صورته خبر عن حوار دار بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والحطيئة العبسي؛ حيث قال له:" كيف كنتم في حربكم؟ قال كنا ألف فارس حازم، قال: وكيف يكون ذلك؟ قال: كان قيس بن زهير فينا، وكان حازمًا فكنا لا نعصيه، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل، ونحجم إذا أحجم، وكان فينا الربيع بن زياد ، وكان ذا رأي فكنا نستشيره ولا نخالفه، وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره، فكنا كما وصفت، فقال عمر: صدقت[٢]".

والذي يعنينا من الخبر ما يخص عنترة، ووصف حسن سياسته في الحرب وائتمام قومه به، فيرون بعينه ويتبعونه ثقة وتسليمًا في مواطن الخطر والضيق واحتدام الخيل، وهذه هي مكانة عنترة في مجتمعه مكانة حاملة على القبول والتصديق الحاصل لخطابه إن نطق.

شاعريته:

يكفينا في الكشف عن قيمته كشاعر في التصور العربي كونه من أصحاب المعلقات، وهذا دليل كاف على المكانة التي تبوأها شعره بين العرب، وهناك رواية شهيرة تبرر قوله للشعر؛ حيث يذكر ابن قتيبة في ترجمته لعنترة:" وكان لا يقول الشعر إلا البيتين والثلاثة حتى سابه رجل فذكر سواده وسواد أمه وإخوته، وعيّره بذلك، وبأنه لا يقول الشعر، فقال عنترة: والله إنّ الناس ليترافدون بالطّعمة، فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدّك قطّ، وإنّ الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهم، فما رأيناك فى خيل مغيرة في أوائل الناس قطّ، وإنّ اللّبس ليكون بيننا، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدّك خطّة فيصل ، وإنّما أنت فقع نبت بغرقى، وإني لأحضر البأس، وأوفي المغنم، وأعفّ عن المسألة، وأجود بما ملكت يدى، وأفصل الخطّة الصّمعاء، وأما الشعر فستعلم. فكان أوّل ما قال قصيدة:

هَلْ غَادَرَ الشّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ[٣]؟

(١) المغربي، نشوة الطرب، ص ٥٤٦، والأغاني، ج٨ص٢٥٣.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج٨، ص ٢٥١.

(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، ج١ص ٢٤٤.

ووراء هذه الرواية الكثير من الشعور الضمني بحاجة عنترة الدائمة لإثبات الذات، وأن قوله الشعر كان واسطة العقد التي أتم بها فضائله، بالإضافة للشعور بمكانة شعره فعدّ استجابة لتحدٍّ لانتزاع المكانة واستحقاقها، وما سُرد قبلها من فضائل عنترة كلها دلائل أن الرجل جدير بالمكانة التي حازها وهذه كلها قرابين قدمها عنترة لإرضاء القبيلة لتحقيق الانتماء واستحقاق المكانة فروسية وقيمًا وشاعرية.وقد روى أكثر من مصدر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشد بيت عنترة:

ولقــدْ أبيــتُ عَلَــى الطَّــوَى وَأَظَلُّــهُ حتَّــى أَنَــالَ بِــهِ كَــرِيمَ المَأْكَــلِ[١]

ثم قال:" ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة[٢]" وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح؛ فإنها تدل على عمق إحساس العرب بقيمة عنترة كفارس ذي قيم يرتضيها الإسلام ويدعو لها فكان رجلاً جديرًا أن يشتاق رسول الله صلى الله عليه وسلم لرؤياه.

ونضيف لهذا ما عد له من التشبيهات العقيمة التي لم يجرؤ الشعراء على منافسته على معانيها[٣].

وهذا وإن لم يكتب إلا في القرن الثاني أو الثالث إلا أن مثل هذه التفضيلات غالبًا ما تكون قد سبقت بأخرى جاهلية تنبهت وأشارت لهذا الفضل الوارد في شعر الشاعر.

وقد عده ابن سلام الجمحي في شعراء الطبقة السادسة مع عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وسويد بن أبي كاهل[٤].

وبهذا نجد عنترة قد جمع الحسن من طرفيه في المجتمع العربي القبلي الجاهلي؛حيث جمع الفروسية والشاعرية " وإذا اجتمع الشعر والفروسية في شخص واحد فقد بلغ أرفع درجة تنظر إليها القبائل بإعظام[٥]".

والفروسية تجر معها قاطرة من القيم الجاهلية لما فيها من النجدة والصبر والحماية والدهاء والشجاعة بالإضافة للكرم الذي هو رأس خلائق السلم ، والروايات

(١) عنترة ، الديوان، ص ١٢٧.

(٢) ابن منقذ، لباب الآداب، ج ١ص٢١٧، ولباب الآداب، الثعالبي، ص ١١٩، وديوان المعاني ، العسكري، ج١ص ١١١، الأغاني، ج٨ص ٢٥٠.

(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، ج١ص وديوان المعاني، ج٢ص١٤٨، سر الفصاحة، ص ٢٤٩، تحرير التحبير ص ١٧١.

(٤) الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج ١ص١٥٢.

(٥) البستاني ، الشعراء الفرسان، ص ١٢.

السابقة غالبًا تُسبق بعبارة :" وكان عنترة أشجع / أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يداه[١]".

وهذه القيم التي تغنى بها عنترة واعترف بها معاصروه مجتمعة تجعل لخطابه مصداقية لا يُستهان بها ونجاعة فاعلة في محيطه رضاء وقبولًا فالفن البلاغي " يقوم على قوة الخطيب البيانية من جهة وعلى سيرته الأخلاقية التي يسعى إلى تلبسها اجتماعيًّا بوصفه ممثلاً لقيم من المفترض احتذاؤها والسير على منوالها من جهة أخرى[٢]"

والشاعرية قيمة فوق تلك القيم فأي وقع يكون لخطاب عنترة في محيطه، يقول بطرس البستاني:" وأوقع الكلام عندهم – يعني العرب – ما جاء عن شاعر فارس تلاقى في نفسه على صفاء إله البيان، وإله الحسام[٣]".

الإيتوس الخطابي:

لابد ابتداء من تحديد المخاطب في شعر عنترة، هذا المخاطب المعني باستراتيجية الإيتوس للتأثير فيه إقناعًا أو إخضاعًا،" فالهدف من الحجاج ليس تدقيق بعض الجهات المنطقية للقضايا، بقدر ما هو توفير الوسائل المفضية إلى إقناع الجمهور وحمله على التصديق من خلال التنويع في ضروب التعبير عن الفكرة[٤]"

فقصائد عنترة موزعة بين فخر ومديح وهجاء، يتخلل هذا كله الغزل وتنتظمه الحماسة.

وشعر الحماسة والفخر لهما بعد حجاجي يتمثل في إرهاب الخصم أولاً، وحمله على الإذعان والتسليم بالمكانة وتبعاتها ثانيًا.

وقد تحدث كثير من النقاد أن فخر عنترة غالبًا فخر شخصي لا جمعي بالقبيلة[٥]، ولعل مرجع ذلك أن انتماءه للقبيلة ليفتخر بها يحتاج منه دومًا إلى إقناع بأحقيته به، لما أسلفنا من شأن نسبه، فهو يفتخر بذاته أولاً ثم يظهر ضمير الفاعلين(نا) فيما بعد على استحياء، ومن هنا يتكشف لنا مخاطبًا ضمنيًّا في فخره قبل الآخر الصريح المتمثل في العدو خاصة والمجتمع العربي عامة ألا وهو بنو عبس أنفسهم – قبيلة الشاعر– فهم قبل هذا وذاك معنيون بفخره المثبت لانتمائه إليهم، وجدارته بالانتساب

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، ج١ص٢٤٤،وخزانة الأدب، ج١ص١٢٨.

(٢) الدهري، الحجاج وبناء الخطاب، ص ٥.

(٣) البستاني ، الشعراء الفرسان، ص١٢.

(٤) صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص ٣٢٢.

(٥) بدري، الشعراء السود وخصائصهم ، ص ٤٩، والفروسية في الشعر الجاهلي لنوري القيسي، ص ٢٣٨.

لهم، وهذه هي قضية الشاعر الأولى التي يدور على إثباتها أغلب شعره، وتصب في مصلحتها جل استراتيجياته للإقناع والاستمالة.

يقول في وصف معركتهم مع بني عامر قتلة زهير بن جذيمة العبسي الذي كان يحتل من نفس عنترة مكانة عظيمة وله فيه مدائح مميزة:

أُحِبُّ بَني عَبسٍ وَلَو هَدَرُوا دَمِي مَحَبَّةَ عَبد صادق القَول صابر

وَأَدنو إِذا ما أَبعَدوني وَأَلتَقي رِماحَ العِدا عَنهُم وَحَرِّ الهَواجِرِ(١)

وهذا لا يشبه فخر العرب بقبائلهم؛ حيث لا حديث عن بعد ودنو و ظلم واضطهاد وإقصاء وفداء وجحود مسكوت عنه ، فعادة الشعراء في مقامات الفخر التغني بمتانة انتمائهم لقبائلهم، فتذوب الذات (الأنا) في الآخر (القبيلة) ويصبح الصوت واحدًا،وتظهر(نا) الفاعلين،وتخيم على النص لغة جمعية طاغية .

واللغة في الأبيات السابقة فضاحة، فإن عنت (محبة عبد) عبودية المحبة، فلها ظلالها في نفس الشاعر الذي عاش بينهم عبدًا – ردحًا من عمره – تتوق نفسه للانتماء الحق فيهم؛ لذا نجد عنترة يعوض صوت القبيلة بوصف فرسان عبس حوله في المعركة؛ لأنه في حومة الوغى يرى مكانته فيهم دون مدافع، وهؤلاء الداعين عنترة المتحلقين حوله، المؤتمرين بأمره (يشفون نفسه) من كل جراحات الماضي، ويثبتون انتماءه فيهم ، ويقدمونه ويصدقونه ويفتدونه كما يفتديهم مفتخرًا بهم حيث يقول من القصيدة السابقة نفسها :

إِذا نَحنُ حالَفنا شِفارَ البَواتِرِ وَسُمرَ القَنا فَوقَ الجِيادِ الضَوامِرِ

عَلى حَربِ قَومٍ كانَ فينا كفايَةً وَلَو أَنَّهُم مِثلُ البِحارِ الذواخِرِ

وَما الفَخرُ في جَمعِ الجُيوشِ وَإِنَّما فَخارُ الفَتى تَفريقُ جَمعِ العَساكِرِ(٢)

وهنا يستخدم الحجة النفعية(٣)؛ حيث العبرة ليست بضخامة الجيش، وإنما بنتيجة المعركة، وكأنه يقول:

- جيش بني عامر كثير العدد
- جيشنا قليل العدد
- هزمناهم وبما أن النتيجة بالعبرة

(١) عنترة ، الديوان، ص٣٧.

(٢) عنترة ، الديوان، ص٣٧.

(٣) الحجة النفعية تقوم على تقييم فعل ما أو حدث ما أو قاعدة على أساس نتائجه، انظر مشبال، خطاب الأخلاق والهوية، ص ٧٧.

– فرسان بنو عبس (وإن قلوا) كفاية لأي جيش (وإن كثروا).

ويقول أيضًا :

لمَّـــا ســـمعتُ نـــداءَ مـــرَّةَ قـــد عـــلا ومحلِّـــمٌ ينعـــونَ رهـــطِ الأخيـــلِ

ناديـــتُ عبـــساً فاســـتجابوا بالقنـــا وبكـــلِّ أبـــيضَ صـــارمٍ لـــم يُفلَـــلِ[1]

وبين (ناديتُ عبساً) وبين (فاستجابوا) تكمن علاقة الشاعر بقبيلته ، ولحظة صدق افتخاره وانتمائه، يقول:

وكيـــفَ أنـــامُ عـــنْ ســـاداتِ قـــومٍ أنـــا فـــي فَـــضْلِ نِعْمـــتِهِمْ رُبيـــت[2]

فالشاعر معني بهذه اللحظة وإبرازها في شعره، تضخيمًا لصوت الحامي الملتجأ إليه، المدعو في ساحة الوغى إذا احتدمت الأمور، وارتعدت الفرائص، وهذا أعظم قربان يقدمه للإذعان بمكانته، وجدارته بحريته وانتسابه، وسوف نذكر هذا مفصلاً عند الحديث عن فروسيته.

ومن هنا فمخاطب الشاعر يتراوح بين جمهور وأفراد، مخاطب عام وآخر خاص.

فالمخاطب العام هو: القبيلة / المجتمع العربي، العدو.

والمخاطب الخاص هو: الممدوح/ المهجو / عبلة.

وشعره يدور حول معان أساسية– وإن اختلفت وتنوعت أغراضه– تدخل في تشكيل ملامح الإيتوس الذي رسمه بعناية في مواجهة المخاطب(العام/ الخاص) .

وهناك ثلاثة خطوط رئيسة لتكوين هذه الصورة التي قدم بها فارس بني عبس نفسه: العبد الأسود، والفارس البطل ، والعاشق المغرم.

إيتوس العبد الأسود :

لقد رأى بعض الدارسين أن حديث عنترة عن سواده يشي بعقد نفسية متراكمة جراء أزمته المتمثلة في نسبه[3] إلا أن هذا من وجهة نظرنا يعد استراتيجية مهمة من استراتيجيات خطابه، ودعامة أساسية في تكوين صورة (إيتوس عنترة) التي يلج بها على سامعيه، حتى تتحاور صورة الأنا الخارجية وصورتها كما هي في الشعر.

فجزء من صورته في أذهان الناس هو لون بشرته، ونسبته إلى أمه زبيبة؛ فكان شعره وسيلة مجابهة (الإيتوس القبلي) حيث يحاول الشاعر جاهدًا جعل هذه الخصيصة في

(١) عنترة ، الديوان، ص١٢٥.

(٢) عنترة ، الديوان، ص٣٨.

(٣) حسوني، عقد الشعراء النفسية المركبة ، ص ٧ وما بعدها .

صالحه، بالدفاع عن السواد،أو إراغته عن دلالته أحيانًا، وبالافتخار بـه متحـديًا أحيانًـا أخرى.

يقول مفتخرًا:

وأنـا المُجَـرَّبُ فـي المَواقِـفِ كُلِّهـا مِـن آلِ عَـبسٍ مَنـصِبي وَفَعـالي

مِـنهُم أَبـي شَـدّادُ أَكـرَمُ والِـدٍ وَالأُمُّ مِـن حَـام فَهُـم أَخـوالي[1]

واستخدام الهنة التي على لسان الناس تعد نقيصة، فتذكرها أنت باعتبارها ميزة، استراتيجية ذكية في إضعاف أثر التصور المسبق، واعتناق التصور الحـديث أو علـى الأقل احترامه.

فالشاعر هنا يتغافل عما ارتكز في الطبائع العربية من احتقار الزنـوج بـإعلاء صـوته بالانتساب لهم، قارنًا إياه بنسبته لعبس، موهمًا أن كلا النسبين من بـاب واحـد منزلـة وكرامة؛ لأنه لم يحتشد للثاني مدافعًا عنه، وإنما ذكره هكـذا كحقيقـة ظـاهرة جـديرة بالافتخار بها، وهذا من تنزيل المنكر منزلة غير المنكر، وهو من أقـدم الاسـتراتيجيات البلاغية في مواجهة الإنكار بعدم الاعتداد به.

يقول مفتخرًا بأمه:

وَأَنـا اِبـنُ سَـوداءِ الجَبـينِ كَأَنّهـا ضَـبُعٌ تَرَعـرَعَ فـي رُسـوم المَنـزِلِ

الـساقُ مِنهـا مِثـلُ سـاقِ نَعامَـةٍ وَالـشَعرُ مِنهـا مِثـلُ حَـبِّ الفُلفُـلِ

وَالثَغـرُ مِـن تَحـتِ اللِثـامِ كَأَنّـهُ بَـرقٌ تَلَأَلَـأَ فـي الظَـلامِ المُـسدَلِ[2]

لوصفه لأمه هنا أثر عجيب؛ حيث يستعير أوصاف المجتمع لينزع استباقًا على العائب أداته، ويتركه دون قول، يسوقها مساق الفخر بها فيحرم العائب السبق إلى الصفة.

إِنِّـي امـرؤٌ مِـنْ خَيْـرِ عَـبْسٍ مَنْـصِباً شَطْرِي، وأحْمِـي سَـائِري بالمُنْـصَلِ[3]

يقول :

وهذا افتخار بالعمومة دون الخؤولة، وتسليم بأن الثاني ليس في منزلة الأول، والثاني يحميه بحد السيف، وفي هذا تصريح بوظيفة السيف والفروسية في رسم صورته، وأنها

(١) عنترة ، الديوان، ص١٣٢.

(٢) عنترة ، الديوان، ص١٣٥.

(٣) عنترة ، الديوان، ص١٢٥.

ارتقاء بالشطر الذي لم يرتق، فهذا الذي ترونه هنة وعيبًا غطيته بسيف يحميه ويحميكم ولكن البيت الذي يليه ينزع من المعم ميزة يجعلها للمخول، يقول:

وإذَا الكتِيبَـــةُ أحْجَمَـــتْ وتَلاَحَظَـــتْ ألْفِيـــتُ خَيْـــراً مـــن مُعَـــمٍّ مُخْـــوَلِ[١]

"فنسبه الهجين أورثه قوة جعلته يفعل ما يعجز عنه الصرحاء فغدا أفضل منهم[٢]"بل أنه يفتخر بهجنة نسبه صراحة يقول :

أنـــــا الهَجـــــينُ عَنْتَـــــرهْ كـــلُّ امْـــرِئٍ يَحْمـــي حِـــرَهْ[٣]

ويقول :

إنّـــي أَنـــا عَنتَـــرَةَ الْهَجِـــينُ فَـــجُّ الأَتَـــانِ قَـــد عَـــلا الأَنِـــينُ[٤]

بل وتجده مفتخرًا بعبوديته قائلًا:

أَنـــا العَبـــدُ الّـــذي بِـــدِيارِ عَـــبسٍ رَبيـــتُ بِعِـــزَّةِ الـــنَفسِ الأَبِيَّـــه[٥]

فيقرنها بنقيضها في التصور العام؛ ليمحو هذا ويحل مكانه ذاك، عبد ربي عزيزًا، هذه العزة التي يلح عليها كثيرًا لأنها مظنة إنكار،يقول:

وَإِنّي عَزِيـــزُ الجـــارِ فـــي كُـــلِّ مَـــوطِنٍ وَأُكـــرِمُ نَفـــسي أَن يَهـــونَ مَقـــامي[٦]

ويقول:

لا تـــسقني مـــاءَ الحيـــاةِ بذلـــةٍ بـــل فاســـقني بـــالعزِّ كـــأسَ الحنظـــلِ[٧]

ويقول:

دَعْنـــي فـــي الحيـــاةِ أمُـــتْ عزيـــزاً فمـــوتُ العِـــزِّ خيـــرٌ مـــن حيـــاةِ[٨]

ويقول:

مَـــن لَـــم يَعِـــش مُتَعَـــزِّزاً بِـــسِنانِهِ سَـــيَموتُ مَـــوتَ الـــذُلِّ بَـــينَ المَعـــشَرِ[٩]

(١) عنترة ، الديوان، ص١٢٥.
(٢) سليم ، الانتماء في الشعر الجاهلي، ص ١٥٧.
(٣) عنترة ، الديوان، ص٧٢.
(٤) عنترة ، الديوان، ص١٩٢.
(٥) عنترة ، الديوان، ص١٥٧.
(٦) عنترة ، الديوان، ص١٩٠
(٧) عنترة ، الديوان، ص١٣٤.
(٨) عنترة ، الديوان، ص٣٩.
(٩) عنترة ، الديوان، ص٨٤.

وهذا الإلحاح على أفكاره وتكرارها استراتيجية حجاجية " فالتكرار يساعد أولاً على التبليغ والإفهام، ويعين المتكلم ثانيًا على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان، فإذا ردد المجتمع لفكرة حجة ما؛ أدركت مراميها، وبانت مقاصدها، ورسخت في ذهن المتلقي(١)" وهذا ديدن عنترة مع أغلب معانيه.

أما دفاعه عن سواده فمن نحو قوله :

يَعيبونَ لَوني بالسَّواد وإنما فِعالُهم بالخُبثِ أَسودُ من جِلْدي

وَما عابَ الزَمانُ عَليَّ لَوني وَلا حَطَّ السَوادُ رَفيعُ قَدري(٢)

وهنا تظهر استراتيجية عنترة الثانية في الدفاع عن سواده، وتتمثل في التسليم بكونه عيبًا، ولكنه عيب يجلوه تراكم المزايا حوله، فيحدث مقارنة بين لون بشرته الذي لا يتجاوزها لصبغ سريرته، ولون بشرتهم الذي يخفي سواد سرائرهم، متكأً على القيمة المعروفة من أن المخبر أعظم مكانة من المظهر.

- لوني أسود وفعلي أبيض.
- لونهم أبيض وفعلهم أسود. وبما أن المخبر أعظم من المظهر
- أنا خير منهم

" لقد رأى العرب كغيرهم من الشعوب صفة البياض رمزًا معنويًّا للصفاء والنقاء والطهر والشرف والخير، والسواد رمز لكل ما ناقضها...ولارتباط اللون الأسود عند الجاهلي بالعبودية... تولد كره الجاهلي لأصحاب البشرة السوداء لما طبعته في نفسه من رموز الذل والضعف والهوان(٣)".ولهذه الرمزية بالذات نرى براعة عنترة في إخلاء لونه من كل ما يتداعى معه من صفات، وعزله ليكون لون جسد فحسب لا يتجاوزه للمخبر، فيلح على نقائض صفات العبودية ، ولا يسلم لنفسه منها سوى بالوفاء والصبر، فاستراتيجيته الثانية والثالثة تتمثل في الآتي:

عزل الصفة عن تداعيتها، حصرها في الجلد فحسب، ثم الدفاع عنها بإراغتها عن معناها. وهذه هي الاسترتيجية الثالثة ، أو الاعتراف بها كنقيصة يجلوها تراكم المزايا المحيطة بها، يقول :

سَوادي بَياضٌ حينَ تَبدو شَمائِلي وَفعلي عَلى الأَنسابِ يَزهو وَيَفخَرُ(٤)

(١) الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص ١٦٨.
(٢) عنترة ، الديوان، ص٥٩.
(٣) سليم ، الانتماء في الشعر الجاهلي، ص١٩١ وما بعدها.
(٤) عنترة ، الديوان، ص٧٩.

(سوادي/ بياض) فهو من حيث يدفع عن سواده، يسلم برمزيته، فيستعير له نقيضه وما يرمز له في المخيلة العربية ليجبّه به.

وشبيه بهذا ولكنه مكسو بشيء من اللوعة والأسى قوله:

وَأُظهِرُ نُصحَ قَومٍ ضَيَّعوني وَإِن خانَت قُلوبُهُمُ الوِدادا

أُعَلِّلُ بِالمُنى قَلباً عَلِيلاً وَبِالصَبرِ الجَميلِ وَإِن تَمادى

تُعَيِّرُني العِدا بِسَوادِ جِلدي وَبَيضُ خَصائِلي تَمحو السَوادا[1]

ولعل الأسى واللوعة هنا من الاستراتيجيات الفاعلة في التأثير والاستمالة؛ ذلك أنها طريقة من طرق شعر الفروسية، إذ يمزجون الحديث عن بطولاتهم بذكر معاناتهم فيكون لقولهم وقع أعظم على النفوس، ففي تصوير القوي الهمام موجوع القلب شيء آسر يدعو للتعاطف والقبول وتبني الدفاع عن معاناته، يقول بطرس البستاني:" وأحب صفات الشعر الفروسي ما امتزج فيه الفخر والحماسة بالألم والشكوى،وصادم الحزن واليأس روح البطولة والإقدام، فإن تضارب هذه العوامل المختلفة يخلق للشعر جوًّا رائعًا يؤثر في النفس ويستولي على الشواعر[2]"

وفي هذه الأبيات ثنائية المخبر والمظهر صريحة جدًّا، يلح عليها عنترة عن طريق الإضافة فهو كما أسلفنا لا يضيف السواد لذاته وإنما لجلده فحسب(سواد جلدي) ثم تأتي خصاله البيض التي مهد لإثباتها بصبر يقابل التمادي، ووفاء لمن لم يرعَ الوداد لتعلو سواد جلده وتمحوه وتبطل أثره.

ومن بديع هذا الباب قوله :

لا يَحمِلُ الحِقدَ مَن تَعلو بِهِ الرُتَبُ وَلا يَنالُ العُلا مَن طَبعُهُ الغَضَبُ

وَمَن يَكُن عَبدَ قَومٍ لا يُخالِفُهُم إِذا جَفُوهُ وَيَستَرضِ إِذا عَتَبُوا

قَد كُنتُ فيما مَضى أَرعى جِمالَهُمُ وَاليَومَ أَحمي حِماهُم كُلَّما نَكِبُوا

لِلّهِ دَرُّ بَني عَبسٍ لَقَدْ نَسِلُوا مِنَ الأَكارِمِ ما قَد تَنسُلُ العَرَبُ

لَئِن يَعيبوا سَوادي فَهوَ لي نَسَبٌ يَومَ النِزالِ إِذا ما فاتَني النَسَبُ[3]

(١) عنترة ، الديوان، ص٤٩.

(٢) البستاني ، الشعراء الفرسان، ص١٣.

(٣) عنترة ، الديوان، ص٢٥.

وهذه الأبيات عجيبة في بابها وفي مقامها، فهي مطلع قصيدته التي هجا بها النعمان بن المنذر، وعجيب فعلاً أن يبتدأ ملكًا يهجوه بمثل هذا ، ولو تأملناها لوجدناها أبياتًا تشي بنضج فني ونفسي مميز، وتوافق فلسفي يجعل الشاعر متزنًا رغم كل الظروف الداعية للاضطراب، فالحكمة التي أرسلها في البيت الأول – وإن كانت تعريضًا بالنعمان – إلا أنها تحمل حقيقة نفسية في إدراك دواعي عرقلة النجاح والنضج، فالحقد والغضب أكبر معيقين للنفس البشرية ومبددين للطاقة، وعندما يبتدئ شاعر بمثل هذا فإنه يقول ضمنيًّا للمخاطب بأنه يحوز هذه الصفات ويعوزها المخاطب تعريضًا.

ولعل عنترة تأمل طبعه في الحرب والسلم وقارن ميزاته وميزاته أقرانه من فرسان عبس ، وعلم يقينًا أن الذي ارتقى به هو نشأته فيهم عبدًا يرعى الجمال، بكل ما تعلمه العبودية من صبر ، والرعي من سياسة، ثم تأمل ما علا به عليهم بعد تحرره من العبودية، فوجد أن ترفعه عن سوءات الحقد وتارات الغضب هي التي شمخت به عن أن يكون أسير ماضيه ، فتحدث عن كل ذلك بهذا الهدوء الرصين فوصل مع البيت الثالث إلى نقطة التحول من سوق الحكمة إلى الفخر الذي يلج به على المهجو، ومن عبقرية عنترة أن يبدأ النعمان بما يعد فيه (عنترة) عيبًا استباقاً، فينتزع من المهجو أداته ويجعله مسلوب السلاح كما لاحظنا من قبل ، ثم ينتقل من ذكر العبودية لذكر السواد الموجب لها، فيذكر أن سواده نسب له في المعارك إذا ما فاته النسب إرعابًا وإرهابًا فهو الموت الأسود الذي ترعد له قلوب الفرسان :

وَأَنا المَنِيَّةُ وَابنُ كُلِّ مَنِيَّةٍ وَسَوادُ جِلدي ثَوبُها وَرِداهَا (١)

وفي هذا البيت تظهر الاستراتيجية الثالثة : إراغة اللون عن دلالته، فالسواد رداء المنية المرعب الذي يهاب ويتقى، ليس عيبًا إذًا بل رعب الأعداء، وحضور هذه الاستراتيجية في شعره أقل من سابقاتها ، يقول معاتبًا عبلة :

وَنَاداني عِنانٌ في شِمالي وَعاتَبَني حُسامٌ في يَميني

أَيَأخُذُ عَبلَةً وَغْدٌ ذَميمٌ وَيَحظى بِالغِنى وَالمالِ دوني

فَكَم يَشكو كَريمٌ مِن لَئيمٍ وَكَم يَلقى هِجانٌ مِن هَجينِ

(١) عنترة ، الديوان، ص٢١١.

وَمـــا وَجَـــدَ الأَعـــادي فـــيَّ عَيبـــاً فَعـــابوني بِلَـــونٍ فـــي العُيـــونِ[١]

يخاطب عنترة الفارس عنانه وحسامه، ولهما من المكانة في تصوير إيتوس الفارس الشيء الكبير، حيث يخلق أدواته الحربية ذواتًا تشهد وتؤيد وتخبر وتستخبر، وهما هنا يعاتبان الشاعر على التفريط في عبلة، وعبارتهما صنعت تساؤلًا إنكاريًّا والاستفهام الإنكاري هنا أسلوب حجاجي بامتياز[٢] وعنترة الذي عانى من المجتمع وتنميطه ليس خارجًا عنه رافضًا لقوانينه، بل هو منصاع لها متساوق معها ، ففي البيت الثالث الذي أرسله حكمة يكرس مقياس النسب في المجتمع عادًّا نفسه من الهجان الذي قد يسوده الهجين انتكاسًا للفطرة وخروجًا عن قوانين الأشياء، ومن هنا نعرف أزمة الشاعر وغايته في ذات الوقت، فهو يريد أن ينتزع مكانته في المجتمع ضمن قوانينه لا تمردًا عليها؛ لأنه أهل ليس فقط بفعاله بل بانتسابه لأبيه، وينفك عن هجنة العبودية بحيث يُخَلِّص اللون من مصاحباته كما أسلفنا، فيعترف باللون وينكر تداعياته فليس ثمة عيب فيَّ سوى لوني الذي هو سواد العيون ، وهذه الحجة حجة النعت [٣]حجة التسمية بإعطاء اللون دلالات جديدة وأوصاف جديدة، فالسواد هو لون العيون التي افتتن بها العربي وتغنى بها أبدًا.

وهكذا يريغ اللون عن دلالاته مقنعًا المخاطب بدلالته الجديدة، نازعًا عنه دلالته التي عدته عيبًا، وقد عد أبو هلال العسكري هذه الاستراتيجية أعلى مراتب البلاغة يقول:" أعلى مراتب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرج في معرض الممدوح المحمود[٤]"

ومن الإراغة قوله:

لَـــئِن أَكُ أَســـوَداً فَالْمِـــسْكُ لَـــوني وَمـــا لِـــسَوادِ جِلـــدي مِـــن دَواءِ[٥]

(١) عنترة ، الديوان، ص١٨١.

(٢) انظر: قادا، بلاغة الإقناع ، ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) حجة التسمية أو النعت أي إسناد نعوت إلى الشيء تسهم في توجيه دلالته وجهة تقويمية تخدم غرض المتكلم وموقفه، انظر مشبال، خطاب الهوية والأخلاق، ص ٤٤،وصولة، في نظرية الحجاج ، ص ٤٤ وما بعدها .

(٤) العسكري، الصناعتين، ص ٥٣.

(٥) عنترة، الديوان،ص٢٢.

وهذا أيضًا حجة نعت، فجعل السواد مسكًا والمسك أسود، فرحل تداعيات السواد في المخيلة العربية ليحل محلها تداعيات المسك الطيب المرضي عنه المتغنى بجماله ، ومنه قوله:

يَعيبونَ لَوني بِالسَوادِ جَهالَةً وَلَولا سَوادُ اللَيلِ ما طَلَعَ الفَجرُ[1]

وتجتمع هنا استراتيجيتي النعت والمنفعة ، فالسواد هو الليل بكل جماله وسحره ورهبته ،وهذا هو النعت وهو المفضي إلى الفجر ولولاه لما كان الفجر، وهذه هي المنفعة.

ومنه أيضًا قوله:

وإنْ يعيبوا سواداً قد كُسيتُ بهِ فالدرُّ يسترهُ ثوبٌ من الصّدف[2]

فالسواد هنا صدفة المحارة التي تخفي الدر بداخلها فيقرن السواد بالدر ويجعله وقاية الطبيعة للجمال المكنون ، مدلًا بجمال سريرته الجدير بالصون .

وقد ساق الشرط هنا بإن وكأن الشأن ألا يُعاب السواد، وأن هذا أمر مستبعد وشبيه به قوله:

إن كُنتَ في عَدَدِ العَبيدِ فَهِمّتي فَوقَ الثُرَيّا وَالسِماكِ الأَعزَلِ

أَو أَنكَرَت فُرسانُ عَبسٍ نِسبَتي فَسنانُ رُمحي وَالحُسامُ يُقِرُّ لي[3]

وهذا من الاستراتيجية الثانية إلا أنه سيق في نفس القالب ، فسوق الفكرة في نطاق الشرط بـ(إن) يدل على أنه ما كان ينبغي أن يكون في عدد العبيد ولا أن تنكر فرسان عبس نسبه، وإن حصل ذلك منهم –على الاستبعاد– فله جانب يعلو به مهما تم حسبانه ظلمًا من العبيد" وللشرط أهمية في الحجاج إذ يكفي أن يسلم المتلقي بالمقدمات ليتقبل النتيجة[4]" لذا نجد عنترة معتمدً له أداة فاعلة في حجاجه حتى يوصلنا للنتيجة النهائية في البيت الثالث أنه نال العلا بنفسه وسيفه لا بالقرابة والنسب، ويسوقها مساق الحقيقة المؤكدة غير عابئ بإنكار المنكرين.

إيتوس الفارس البطل:

يعتمد عنترة في خلقه هذا الجانب من صورته على حجتي القوة والقيم على التناوب، فالإقناع هنا أشبه بالطبيعة الجاهلية، إقناع بالعنف بالانتزاع.

(١) عنترة، الديوان،ص٨٨.
(٢) عنترة، الديوان،ص١٠٣.
(٣) عنترة، الديوان،ص١٣٤.
(٤) المخزومي، في النحو العربي، ص ٢٨٤.

أَظُلمــاً وَرُمحــي ناصِــري وَحُــسامي وَذُلّــاً وَعِــزّي قائِــدٌ بزمــامي[1]

فالعدالة الاجتماعية التي يصبو لها الشاعر ينتزعها انتزاعًا لأن" العدالة عندهم لا تؤخذ إلا بالقوة، لذلك أثرت القوة تأثيرًا كبيرًا في تحديد مفهوم العدل والحق، فلكي ينال الإنسان حقه كان عليه أن يجاهد بنفسه وذوي قرابته وعشيرته للحصول على ما يدعيه من حق ويثبته، وهو لا يحصل في الغالب إلا بتهديد ووعيد وباستعمال القوة[2]"

وَقَــد طَلَبــتُ مِــنَ العَليــاءِ مَنــزِلَ بِــصارِمي لا بِــأُمّي لا وَلا بِــأَبي

وقد وصف د.زيعور سلطة صورة البطل في محيط الشاعر الجمعي وتأثيرها إرضــاخًا واستدعاء مستخدمًا عنترة نموذجًا، يقول: " إن عنترة الذي يحارب لأجل قومه، يرضيهم كافة ويستهويهم قاطبة...وهو بطل يقيم ناموسًا يضبط به الجماعــة برمتهــا ولا يتــرك مجالًا للنقض من قبل فرد أو آخر[3]".

وإيتوس البطل الفارس في شعر عنترة يتكون من مجموعة صور تتعاضــد فيمــا بينهــا لخلقه كما أراده عنترة، وكما كان تأثيره في الناس ذيوع ذكر وبقاء أثر.

الصورة الأولى: صورة الفارس المرعب.

الصورة الثانية: صورة الفارس كامل الأخلاق.

الصورة الثالثة: صورة الفارس قرين الموت.

وهو بهذه الصور الثلاث يحشد أدواته الفنية لرسم إيتوس كفيــل بــأن يــضمن إذعان مخاطبيه – على تنوعهم – وتسليمهم، ويملأ أفقهــم بــذات الــشاعر المتــضخمة المرعبة والمقنعة في الوقت ذاته.

الصورة الأولى: صورة الفارس المرعب.

يقول عنترة:

وَكَــم مِــن سَــيِّدٍ أَضــحى بِــسَيفي خَــضيبَ الــراحَتَينِ بِغَيــرِ حِنّــا

خُلِقــتُ مِــنَ الجِبــالِ أَشَــدَّ قَلبــاً وَقَــد تَفنــى الجبــالُ وَلَــستُ أَفنــى[4]

(١) عنترة، الديوان ص١٩٠.

(٢) علي، المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(٣) زيعور، قطاع البطولة والنرجسية، ص ٨٥.

(٤) عنترة، الديوان ص١٩٤.

ويقول أيضًا:

خلقــتُ مـــن الحديـــدِ أشـــدّ قلبـــاً وقـــد بلـــيَ الحديـــدُ ومابليـــتُ

وَإنـــي قَـــدْ شَـــربْتُ دَمَ الأَعـــادي بأقحـــافِ الـــرُّؤوس وَمـــا رَويـــتُ

وفـــي الحَـــرْبِ العَـــوانِ وُلِـــدْتُ طِفْـــلا ومِـــنْ لـــبَنِ الْمَعَـــامِعِ قَـــدْ سُـــقِيتُ[1]

فهو قُد قدًا وخلق خلقًا من أصلب الأشياء، خلق تارة من الجبال وقد تفنى الجبال ولا يفنى، وخلق تارة من الحديد وقد يبلى الحديد ولا يبلى عنترة.

وهذه المبالغة في إيتوس البطل الخارق الذي صنع من طينة مخالفة لطينة باقي الأبطال لا تستهجنها الذائقة العربية بل تروقها وتعجبها " فالتكثر والغلو من خصائص شعر الفروسية، على أن غلوهم لا يأتي مستقبحًا، وهو وليد العاطفة الملحة التي تجعله قريبا من النفس[2]"ومن أهم ما يميز إيتوس الفارس في هذا الجانب صور التلذذ بمشاهد العنف الدموية، والاستمتاع بصور القتلى وسيلان دمائهم، وتناثر أشلائهم.فعنترة في البيت الثاني يشرب نخب النصر دماء أعدائه في كؤوس من جماجمهم ولا يروى!

وقدرة عنترة لافتة في خلق مثل هذه الصور الدموية الكفيلة بصبغ مظاهر القوة والسطوة على المشهد إرعابًا للمخاطب، فمع حجج القوة الإقناع يتخذ شكل الاستسلام والإذعان، وهذا التسليم يأتي رغمًا، وهذا أليق بمنطق الفارس الجاهلي.

وصورة (خمر الدماء) أصيلة في مخيلة عنترة، يقول:

جَعَلــتُ مَنَــامي تَحــتَ ظِــلِّ عَجاجَــةٍ وَكَأسَ مُدامي قحفَ جُمجُمَــةِ الــراس[3]

ويقول:

وَكَاسَـــاتُ الْأَسِـــنّةِ لِـــي شَـــرَابٌ أَلَـــذُّ بِـــهِ اصْـــطِبَاحاً وَاغتبَاقَـــا[4]

ويقول:

وَرَيحانَتي رُمحـــي وَكاســـاتُ مَجلِـــسي جَماجِمُ ســـاداتٍ حِـــراصٍ عَلـــى المَجـــدِ

وَلي مِن حُسامي كُلّ يَومٍ عَلـــى الثَـــرى نُقوشُ دَمٍ تُغني النَدامى عَـــنِ الـــوَردِ[5]

(١) عنترة، الديوان ص٣٨.
(٢) البستاني، الشعراء الفرسان ، ص١٧.
(٣) عنترة، الديوان ص٨٧.
(٤) عنترة، الديوان ص١٠٤.
(٥) عنترة، الديوان ص٥٨.

ويقول:

نَديمي رَعاكَ اللَهُ قُـم غَـنِّ لـي عَلـى كُؤوس المَنايا من دَم حـينَ أَشـرَبُ[١]

ومن الصور المفزعة المبتكرة في هذا الجانب، أن عظام القتلى وجلودهم تتحول نعلًا لخيل عبس لما داستها في المعركة وتلبست بها، يقول:

وَنُنْعِـلُ خَيْلَنَـا فِـي كُـلِ حَـرْب عِظَامًـا دَامِيَـات أوجُلُودَا[٢]

وهذه الصورة أيضًا أصيلة في مخيلة عنترة، وقد ألح عليها، وصاغها في قوالب مختلفة في تضاعيف شعره، يقول:

وَنُنعِـلُ خَيلَنَـا فِـي كُـلِّ حَـربٍ مِـنَ السادات أَقحافـاً دَمِيِّـه[٣]

كما نعلت خيلهم جماجم سادات القوم، عثرت فيها مسرعة في مقام آخر:

إِذا مـا مُنـادي الحَـيِّ نـادى أَجَبتُـهُ وَخَيـلُ المَنايـا بالجَمـاجم تَعثُـرُ[٤]

ويقول صريحًا في وصف دوس الخيل أجساد الفرسان المتهاوية:

تَدوسُ عَلـى الفَـوارِسِ وَهـيَ تَعـدو وَقَـد أَخَـذَت جَمـاجمَهُم نعـالا[٥]

وشبيه به قوله:

وَعـادَ بـي فَرَسـي يَمـشي فَتُعثِـرُهُ جَمـاجِمٌ نُثِـرَت بِـالبيضِ وَالأَسَـلِ[٦]

ويصور عنترة جثث القتلى تنهشها سباع الطير والوحش:

يـا سِـباعَ الفَـلا إِذا اِشـتَعَلَ الحَـر بُ اِتبَعينـي مِـنَ القِفـارِ الخَـوالي

اِتبَعينـي تَـرَي دِمـاءَ الأَعـادي سـائِلاتٍ بَـينَ الرُبـى وَالرِمـالِ

ثُـمَّ عـودي مِـن بَعـدِ ذا وَاِشـكُريني وَاِذكُـري مـا رَأَيتِـهِ مِـن فِعـالي

وَخُـذي مِـن جَمـاجِمِ القَـومِ قوتـاً لِبَنيـكِ الـصِغارِ وَالأَشـبالِ[٧]

(١) عنترة، الديوان ص١١٤.
(٢) عنترة، الديوان ص٥٠
(٣) عنترة، الديوان ص٢١٧.
(٤) عنترة، الديوان ص٨١.
(٥) عنترة، الديوان ص١١٢.
(٦) عنترة، الديوان ص١٣٦
(٧) السابق، ص ١٣١

ويقول:

وَلا يَنثَنـــي حَتّـــى يُخَلّـــي جَماجِمـــاً تَمُـــرُّ بِهـــا ريـــحُ الجَنـــوبِ فَتَـــصفِرُ

وَأَجـــسادَ قَـــومٍ يَـــسكُنُ الطَيـــرُ حَولَهـــا إِلى أَن يَـــرى وَحـــشَ الفَـــلاةِ فَيَنفِـــرُ(١)

وتتداخل هذه الصورة المفزعة مع ما يمكننا تسميته بالتمثيـل شـعرًا بجثـث منازليـه، فيصورهم ممزقي الأوصال، تقتاتهم السباع، ودماؤهم تسيل، وبقاياهم عالقة بسيفه تـارة وبخيله أخرى، يقول:

ولـــربَّ قـــرنٍ قـــدْ تركـــتُ مجـــدَّلاً بلبانـــــهِ كنواضـــــحِ الجريـــــالِ

تنتابـــهُ طُلـــسُ الـــسِّباعِ مُغـــادراً فـــي قفـــرة متمـــزِّق الأوصـــالِ(٢)

وقوله:

تَركـــتُ جُبَيلَـــةَ بـــنَ أَبـــي عَـــدِيٍّ يُبَـــلُّ ثِيابَـــهُ عَلَـــقٌ نَجيـــعُ(٣)

وقوله:

وَخالِـــدٌ قَـــد تَركـــتُ الطَيـــرَ عاكِفَـــةً عَلى دِماهُ وَمَـــا فـــي جِـــسمِهِ رَمَـــقُ(٤)

ومنه بيت المعلقة الشهير:

فَـــشَكَكتُ بِـــالرُمحِ الأَصَـــمِّ ثِيابَـــهُ لَـــيسَ الكَـــريمُ عَلـــى القَنـــا بِمُحَـــرَّمِ

فَتَرَكتُـــهُ جَـــزَرَ الـــسِباعِ يَنُـــشنَهُ يَقـــضِمنَ حُـــسنَ بنانـــهِ وَالمعـــصَمِ(٥)

أو يصورهم في لحظة نزاع الروح، وما يصحبها من حركات لا إرادية تصارع لفظ الأنفاس الأخيرة، وفي ذلك من الرعب ما فيه يقول:

وكـــمْ مـــن فـــارس خلّيـــتُ مُلقـــى خـــضيب الـــراحتينِ بـــلا خـــضابِ

يحـــــركُ رجلـــــهُ رعبـــــاً وفيـــــهِ ســـنانُ الـــرُّمح يلمـــعُ كالـــشّهاب (٦)

(١) السابق، ص٧٩
(٢) السابق، ص١١٨
(٣) السابق، ص٩٣.
(٤) السابق، ص١٠٥
(٥) السابق، ص١٧٤
(٦) السابق، ص٣٤

ومنه أيضًا:

وكَـــم مِـــن سَـــيِّدٍ خَلّيـــتُ مُلقـــىً يُحَـــرّكُ فـــي الـــدما قَـــدَماً وَســـاقا[١]

ومنه أيضًا:

وحَليـــلِ غانيـــةٍ تركـــتُ مُجَـــدَّلاً تَمكُـــو فَريـــصَتُهُ كـــشدْق الأعلَـــم[٢]

ويتضافر هذا الرعب المرسوم مع هيبة الشاعر التي تسبقه إلى الحرب فتقتل وحدها عدوه وإن لم يقتله بسيفه:

إنّـــي لَأَعجَـــبُ كَيـــفَ يَنظُـــرُ صـــورَتي يَـــومَ القِتـــالِ مُبـــارِزٌ وَيَعـــيشُ[٣]

ويقول أيضًا عن هيبته :

وَيُبْـــصِرُني الـــشُّجَاعُ يَفِـــرُّ مِنِّـــي وَيُـــرْعَشُ ظَهْـــرَهُ منِّـــي وَيَـــسْري[٤]

وله في وصف هيئته المخيفة في الحرب أبيات مميزة يخاطب فيها عبلة:

عَجِبَـــت عُبَيلَـــةُ مِـــن فَتـــىً مُتَبَـــذِّلِ عـــاري الأَشـــاجِعِ شـــاحِبٍ كَالمُنـــصُلِ

شَـــعثِ المَفـــارِقِ مُـــنهَجٍ سِـــربالُهُ لَـــم يَـــدَّهِن حَـــولاً وَلَـــم يَتَرَجَّـــلِ

لا يَكتَـــسي إِلّـــا الحَديـــدَ إِذا اِكتَـــسى وَكَـــذاكَ كُـــلُّ مُغـــاوِرٍ مُستَبـــسِلِ

قَـــد طالَمـــا لَـــبِسَ الحَديـــدَ فَإِنَّمـــا صَـــدَأُ الحَديـــدِ بِجِلـــدِهِ لَـــم يُغـــسَلِ[٥]

وهيبة عنترة تتجاوز الفرسان لتفزع المفزعات أنفسها، فالغول والجن تهابه، يقول:

وَالغـــولُ بَـــينَ يَـــدَيَّ يَخفـــى تـــارَةً وَيَعـــودُ يَظهَـــرُ مِثـــلَ ضَـــوءِ المَـــشعَلِ

بِنَـــواظِرٍ زُرقٍ وَوَجـــهٍ أَســـوَدٍ وَأَظـــافِرٍ يُـــشبِهنَ حَـــدَّ المنجَـــلِ

وَالجِـــنُّ تَفـــرَقُ حَـــولَ غابـــاتِ الفَـــلا بِهَمـــاهِمٍ وَدَمـــادِمٍ لَـــم تَغفَـــلِ

وَإِذا رَأَت سَـــيفي تَـــضِجُّ مَخافَـــةً كَضَجيجِ نوقِ الحَـــيِّ حَـــولَ المَنـــزِلِ[٦]

(١) السابق، ص١٠٤

(٢) السابق، ص ١٧٠

(٣) السابق، ص٩٨

(٤) السابق، ص٨٦

(٥) السابق، ص١٢٠.

(٦) السابق،١٣٧.

وقد اعتمد عنترة هنا بالإضافة إلى ما تكتنفه رمزية الغول والجن من رعب وخوف، اعتمد عناصر الصوت في إضفاء الفزع على روح النص (هماهم – دمادم– تضج – ضجيج).

الصورة الثانية: صورة الفارس كامل الأخلاق:

يرى أرسطو أن أهم خصال الخطيب التي ينبغي أن تظهر للسامعين ثلاثة: اللب والفضيلة والبر[١] وهذه القيم مدار قيم عنترة التي تغنى بها، وقد عد د.زيعور القيم الأساس في تكوين صورة البطل في المخيلة البشرية " الشجاعة ، العفة ، الصبر، وسياسة النفس، والتحكم في هواها"[٢] ولم يغفل عنترة شاردة منها مضيفاً لها الحكمة والجود نظرًا لمحورية الجود وقيمته في المجتمع العربي" فالقيم لها دور فعال في بناء الثقة بين المتحاورين[٣]" وينبغي ألا نغفل أن القوة في حد ذاتها قيمة في مجتمع البداوة.

فكل ما سبق من رسمه لإيتوس الفارس المرعب بالإضافة لقيامه بوظيفة الإرهاب وصنع الهيبة المفضيين للتسليم والإذعان، يقوم بوظيفة قيمية إذ يدعو للإعجاب والتقديم.فالعربي لا يعجبه ولا يسوده إلا القوي الغالب،ولا بد من تبني قيم المخاطب والاستسلام لها في تكوين إيتوس الذات، يقول د. أحمد الوظيفي:" إن الشاعر حين يركز على عنصر الإيتوس يقوم بذلك من أجل التأثير في باتوس مخاطبه وتوجيهه نحو فعل أو ترك، أو تبني رأي نظرًا لمركزية المتلقي في الخطاب الإقناعي؛ لذلك فالسعي إلى التلاؤم مع المخاطب يجعل هذا التماهي حافزًا بشكل دائم[٤]"فالتأثير البياني كما يقوم على قوة الخطيب البيانية من جهة " يقوم على سيرته الأخلاقية التي يسعى إلى تلبسها اجتماعيًّا بوصفه ممثلًا لقيم من المفترض احتذاؤها والسير على منوالها من جهة أخرى[٥]".

ومن هنا كان إلحاح عنترة على هذه القيم التي امتلأت بها نفسه؛ إثباتًا لذاته الجديرة بالإعلاء، فكانت حجته الأساس في مواجهة هجنة نسبه ولون بشرته، فإذا ما ذكر سواد لونه ذكر بياض فعاله وشمائله، فهي أداة رئيسة في تغيير قناعة المتلقي وإزالة ما استقر في ذهنه من احتقار لهجنة نسبه.

(١) قادا ، بلاغة الإقناع، ص ٨٤.

(٢) انظر: زيعور، قطاع البطولة والنرجسية، ص ٨٥ وما بعدها فقد حلل هذه القيم جميعًا وارتباطها الوثيق بالتركيبة النفسية لفكرة البطولة إنسانيا.

(٣) الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان، ص ٥٠٥.

(٤) الوظيفي، الحجاج بالإيتوس في شعر النسيب، ص ٥٩٩.

(٥) الدهري، الحجاج بناء الخطاب، ص ٩٣.

فمن وصفه لعفته وتعففه قوله:

إنّــا إذا حَمِــسَ الــوغى نُــرْوي القنــا ونعــفُ عنــد تقاســم الأنفــال[1]

وقوله:

فــأرى مغــانمَ لــو أشــاءُ حويتُهــا فيــصدُّني عنهــا الحَيــا وتكرُّمــي[2]

ويقول:

إذَا لَقِيْــتَ الأَعَــادِي يَــوْمَ مَعْرَكَــةٍ فَــإِنَّ جَمْعَهُــمُ المَغْــرُوْرُ مُنْتَهَــبُ

لَكَ النُّفُــوْسُ وَلِلطَّيْــرِ اللُّحُــوْمُ وَلِلـــ ـــوَحْشِ العِظَامُ وَلِلخَيَّالَةِ السَلَبُ[3]

وفي هذا البيت تتعاضد حجتا القيم والقوة في امتزاج مهيب، ويرضى عنترة بالنفوس نصيبًا من الغنائم وللخيالة السلب.

ومن وصفه لحماية النساء والترفع عن الفحشاء قوله:

وَنَحفَــظُ عَــوراتِ النِــساءِ وَنَتّقــي عَلَــيهِنَّ أَن يَلقــينَ يَومــاً مَخازِيــا[4]

ويقول:

وأَغَضُّ طَرفي مــا بَــدَت لــي جــارَتي حتّــى يُــواري جــارَتي مَأواهــا

إنّــي امــرُؤٌ سَــمحُ الخَليقَــةِ ماجــدٌ لا أُتبِــعُ الــنَفسَ اللَجــوجَ هَواهــا[5]

ويبلغ التغني مبلغه مع البيت الثاني وهو يفخر بقدرته على ضبط خلائقه، وانصياع نفسه الشهوانية له وائتمارها بأمره. وشبيه بهذا قوله

وَلَــأَحمِيَنَّ الــنَفسَ عَــن شَــهَواتِها حَتّــى أَرى ذا ذمَّــةٍ وَوَفــاءِ[6]

ومن وصفه لحماية جاره، ووفائه بحقه، وإعزازه لمكانه:

أَلا فَلــيَعِش جــاري عَزيــزاً وَيَنثَنــي عَــدُوّي ذَلــيلاً نادمــاً يَتَحَــسَّرُ[7]

(١) عنترة ، الديوان، ص ١٣٣.
(٢) عنترة ، الديوان، ص١٥٩.
(٣) عنترة ، الديوان، ص٢٥.
(٤) عنترة ، الديوان، ص٢١٦.
(٥) عنترة ، الديوان، ص٢٠٩.
(٦) عنترة ، الديوان، ص٢٢.
(٧) عنترة ، الديوان، ص٨١.

يقول:

وَإِنّي عَزيــزُ الجــارِ فــي كُــلِّ مَــوطِنٍ وَأُكــرِمُ نَفــسي أَن يَهــونَ مَقــامي[١]

ويقول:

وَإِنّي لَــأَحمي الجــارَ مِــن كُــلِّ ذِلّــةٍ وَأَفــرَحُ بالــضَيفِ المُقــيمِ وَأَبهَــجُ[٢]

وهذا البيت يسلم لقيمة الجود والسماحة التي تغنى بها عنترة دومًا؛ بل إنه اشتهر بها اشتهاره بفروسيته، فما ذكرت كتب الأدب شجاعة عنترة إلا وذكرت جوده وكرمه[٣]

يقول:

وأنــا الرّبيــعُ لِمَــنْ يَحُــلُّ بِــسَاحتي أَسَــدٌ إذا مــا الحــربُ أَبْــدَتْ نَابَهــا[٤]

ويقول:

وانْ كــانَ لــوني أســوداً فخــصائلي بياضٌ ومــن كَفــيَّ يُــستنزل القطْــر[٥]

ويقول:

تَجافَيــتُ عَــن طَبَــعِ اللئــامِ لِــأَنّني أَرى البُخــلَ يُــشنا وَالمَكــارمَ تُطلَــبُ

وَأَعلَمُ أَنّ الجــودَ فــي النــاسِ شــيمَةٌ تَقومُ بهــا الأَحــرارُ وَالطَبــعُ يَغلــبُ[٦]

وكأنه لمس ما يمكن أن يشي به البيت الأول من براغماتية أخلاقية إن جاز لنا التعبير، فدفعها بأنه منه خلقًا وجبلة لا تخلقًا واكتسابًا، فهي طبع الأحرار وهو منهم لا مدافع.

هذا بالنسبة للقيم المجردة، أما القيم الحسية [٧]وتمثلها القبيلة، فهي القيمة الأم في التصور الجمعي العربي، وهي مقابل مشروع لقيمة (الوطن) في التصور الحديث"فإن ما يميز كل جمهور ليس القيم التي يسلم بها بقدر ما يميزه ترتيبه إياها[٨]" وجمهور عنترة تحتل عنده القبيلة القيمة العليا التي لا تعلوها قيمة أخرى، يقول:

(١) عنترة ، الديوان، ١٩٠.

(٢) عنترة ، الديوان، ص٤٠

(٣) انظر الحاشية ، عنترة ، الديوان، ص٣٦.

(٤) عنترة ، الديوان، ص٢٧.

(٥) عنترة ، الديوان، ص٨٨.

(٦) عنترة ، الديوان، ص٢٦.

(٧) قسم الدكتور عبد الله صولة القيم إلى مجردة ومحسوسة ، فالمجردة من قبيل العدل والحق، والمحسوسة من قبيل الوطن ....انظر صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص ٣١٠، وترى سامية الدريدي أن الحجج ثلاثة أقسام:مجردة وحسية وكونية ،انظر سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص ٢٧٠.

(٨) صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص٣١٠.

وَإِنّـــي اليَـــومَ أَحمـــي عِـــرضَ قَـــومي وَأَنـــصُرُ آلَ عَـــبسَ عَلـــى العُـــداةِ[١]

ويقول:

فَفِـــدىً لِقَـــومي عِنـــدَ كُـــلِّ عَظيمَـــةٍ نَفـــسي وَراحِلَتـــي وَســـائِرُ مـــالي

قَـــومي صَـــمامِ لِمَـــن أَرادوا ضَـــيمَهُم وَالقـــاهِرونَ لِكُـــلِّ أَغلَـــبَ صـــالي[٢]

ويقول:

وَأَحمي حِمى قَومي عَلـى طـولِ مُـدَّتي إِلـى أَن يَرَونـي فـي اللَفـائِفِ أُدرَجُ[٣]

وأشباه هذا في شعره الكثير.

الصورة الثالثة: الفارس قرين الموت:

اتحاد عنترة مع مفهوم الموت في علاقة تبادلية لافتة، فهو الموت المليء بالرهبة والفزع للآخر، والموت منزوع منهما بالنسبة إليه؛ حيث يفقد الموت هيبته تمامًا أمام عنترة، وتمثل علاقته بالموت ثلاثية لغوية يمكن تلخيصها في الجمل التالية (أنا الموت/ فليأت الموت/ الموت نهاية كل حي) ما بين رسول الموت وقرينه، وما بين الحكيم المسلم بحتميته تتراوح وتتراقص صور الإيتوس في هذا الباب، يقول:

وَأَنـــا المَنِيَّـــةُ وَابِـــنُ كُـــلِّ مَنِيَّـــةٍ وَسَـــوادُ جِلـــدي ثَوبُهـــا وَرِدَاهَـــا[٤]

وإن عرف نفسه بالموت إلا أنه يفضله فتكًا.

أَنـــا المَـــوتُ إِلّـــا أَنَّنـــي غَيـــرُ صـــابِرٍ عَلى أَنفُس الأَبطال وَالمَـــوتُ يَـــصبُرُ[٥]

ويقول:

وَأَنـــا المَنِيَّـــةُ حـــينَ تَـــشتَجِرُ القَنـــا وَالطَعـــنُ مِنّـــي ســـابِقُ الآجـــالِ[٦]

وآلاته يسكنها الموت فهو دلال المنايا الذي يدلها على طريق ضحاياه، وآلاتـــه تـــسكنها المنية ولا تبرحها:

(١) عنترة ، الديوان، ص ٣٩.
(٢) عنترة ، الديوان، ص١٣٣.
(٣) عنترة ، الديوان، ص ١٤٢.
(٤) عنترة ، الديوان، ص٢١١.
(٥) عنترة ، الديوان، ص٧٩.
(٦) عنترة ، الديوان، ص١٣٢.

إِنّ المَنِيّـــةَ يـــا عُبَيلَـــةُ دَوحَـــةٌ وَأَنـــا وَرُمحـــي أَصـــلُها وَفُروعُهـــا[١]

ويقول:

حِـــصاني كـــانَ دَلّـــالَ المَنايـــا فَخـــاضَ غُبارَهـــا وَشَـــرى وَبـــاعَ

وَسَـــيفي كـــانَ فـــي الهَيجـــا طَبيبـــاً يُـــداوي رَأسَ مَـــن يَـــشكو الـــصُداعا

أَنـــا العَبـــدُ الّـــذي خُبِّـــرتَ عَنـــهُ وَقَـــد عـــايَنتَني فَـــدَع الـــسَماعا

وَلَـــو أَرسَـــلتُ رُمحـــي مَـــع جَبـــانٍ لَكـــانَ بِهَيبَتـــي يَلقـــى الـــسباعا

مَلَـــأتُ الأَرضَ خَوفـــاً مِـــن حُـــسامي وَخَـــصمي لَـــم يَجِـــد فيهـــا اتّـــساعا[٢]

وهذه المقطَّعة عجيبة في تحقيق صورة إيتوس الفارس البطل الذي يسوق الموت معه سوقًا وتملأ هيبته الأرض خوفًا، فتضيق بأعدائه البسيطة ، يقول:

أَقَمـــتُ بِـــصارِمي ســـوقَ المَنايـــا وَنَلـــتُ بـــذابلي الرُتَـــبَ العَلِيّـــه[٣]

ويقول:

بـــسيفٍ حـــدهُ يزجـــي المنايـــا وَرُمـــحٍ صَـــدْرُهُ الحَتْـــفُ المُميـــتُ[٤]

وهو القادر القاهر للموت، فيعمم رأسه يوم اللقاء، أمارة تمكن ونفوذ سلطان :

أَنا الأَسَدُ الحامي حِمى مَـن يَلُـوذُ بـي وَفِعلي لَهُ وَصـفٌ إِلـى الـدَهرِ يُـذكَرُ

إِذا ما لَقيـتُ المَـوتَ عَمَّمـتُ رَأسَـهُ بِسَيف عَلى شُـرب الـدِما يَتَجَـوهَرُ[٥]

ففي الأبيات التالية نرى كيف ينسل الشاعر من التسليم بالموت حتى ينزع عنه هيبته، ويحتقر عقل عاذلته لما خافت عليه المنية= إلى الاتحاد معه، فهو الموت فكيف يهابه، يقول:

بَكَـــرَتْ تُخَـــوِّفُني الحتُـــوفَ كَـــأَنّني أَصْبَحْتُ عَنْ غَـرَضِ الحتـوف بمعـزل

فأجبتهـــا: إنّ المنيـــة منهـــل لا بـــدّ أَنْ أُسْـــقَى بِكَـــأْسِ المَنْهَـــلِ

(١) عنترة ، الديوان، ص٩١.
(٢) عنترة ، الديوان، ص٩٠.
(٣) عنترة ، الديوان، ص٢١٧.
(٤) عنترة ، الديوان، ص٣٨.
(٥) عنترة ، الديوان، ص٨١.

فـــاقَني حَيَـــاءَكِ- لاَ أَبَالَـــكِ- وَاعْلَمـــي أَنِّـــي امْـــرُؤٌ سَـــأَمُوتُ إِنْ لَـــمْ أُقْتَـــلِ

إِنَّ المَنِيَّـــةَ لَـــوْ تُمَثَّـــلُ مُثِّلَـــتْ مِثْلـــي إِذَا نَزَلُـــوا بِـــضَنْكِ المَنْـــزِلِ[1]

وفلسفة الشاعر الحقيقية مع الموت هي مصدر ثباته ، وهمته؛ حيث يصغر الموت في عينيه فلا يهابه، ويؤمن بحتميته فيغامر في طلب المعالي؛ لأنه ميت لا محالة، يقول مخاطبًا عبلة:

وَعَرَفـــتُ أَنَّ مَنِيَّتـــي إِن تَـــأتِني لا يُنجِنـــي مِنهـــا الفِـــرارُ الأَســـرَعُ

فَـــصَبَرتُ عارِفَـــةً لِـــذَلِكَ حُـــرَّةً تَرســـو إِذا نَفَـــسُ الجَبـــانِ تَطَلَّـــعُ[2]

ويقول:

يـــا عَبـــلُ أَيـــنَ مِـــنَ المَنِيَـــةِ مَهرَبـــي إِن كانَ رَبّـــي فـــي الـــسَماءِ قَـــضاها[3]

ويقول:

مَـــن لَـــم يَعِـــش مُتَعَـــزِّزاً بِـــسِنانِهِ سَـــيَموتُ مَـــوتَ الـــذُلِّ بَـــينَ المَعـــشَرِ

لا بُـــدَّ لِلعُمُـــرِ النَفـــيسِ مِـــنَ الفَنـــا فَاصرِف زَمانَكَ فـــي الأَعَـــزِّ الأَفخَـــرِ[4]

وفي المقطع التالي يلخص فلسفته كاملة:

يَخـــوضُ الـــشَيخُ فـــي بَحـــرِ المَنايـــا وَيَرجِـــعُ ســـالِماً وَالبَحـــرُ طـــامي

وَيَـــأتي المَـــوتُ طِفـــلاً فـــي مُهـــودٍ وَيَلقـــى حَتفَـــهُ قَبـــلَ الفِطـــامِ

فَعَيـــشُكَ تَحـــتَ ظِـــلِّ العِـــزِّ يَومـــاً وَلا تَحـــتَ المَذَلَّـــةِ أَلـــفَ عـــامِ[5]

فالبيتان الأولان يمثلان مقدمة حكمية لحجته المنطقية، فالحجة هنا صدَّرها بمقدمة قيمية:

- يتعرض الشيخ للموت فينجو
- يُحمى الطفل من الموت ويدركه

فما دام الموت غير مضمون الضربة

- غامر واطلب العلا ولا تخش ما لا يتقى.

(١) عنترة ، الديوان، ص١٢٥.
(٢) عنترة ، الديوان، ص٩٤.
(٣) عنترة ، الديوان، ص١٨٣.
(٤) عنترة ، الديوان، ص١٨٤.
(٥) عنترة ، الديوان، ص١٨٨.

ومن كل ما سبق يظهر جليًّا كيف " انحسرت فلسفة المجد عنده في مظاهر القوة والبطولة، والفتك بالأعداء، وإيرادهم موارد الهلكة والفناء ، وهي فلسفة ليست بالغريبة عنه؛ بل إنها لتستمد أصولها من بيئته ونشأته وتتفرع في جذور وشائج قبيلته[١]" ففي الوغى تتذكر مكانته وتتجلى، ويحتمى به، ويهاب ويعلى، وفي السلم يتذكر المجتمع سواده وسواد أمه وهجنة نسبه:

خَـــدَمتُ أُناســـاً وَاتّخَـــذتُ أَقارِبـــاً لِعَـــوني وَلَكِـــن أَصـــبَحوا كَالعَقـــارِبِ

يُنادونَني فـــي الـــسلم يـــا ابـــنَ زَبيبَـــة وَعِندَ صِدامِ الخَيلِ يـــا اِبـــنَ الأَطايِـــبِ[٢]

ويقول:

يُنـــادوني وَخَيـــلُ المَـــوتِ تَجـــري مَحَلُّـــــكَ لا يُعادِلُـــــهُ مَحَـــــلُّ

وَقَـــد أَمـــسَوا يَعيبـــوني بِـــأُمّي وَلَـــوني كُلّمـــا عَقَـــدوا وَحَلّـــوا[٣]

ولعل هذا ما جعله أكثر تعلقًا بقيم الفروسية ، ففي الحرب وبالحرب يجد ذاته وفيها وبها تعلو مكانته ويسلم له بنسبه وعلو كعبه وحريته ويقدم فلا يقدم أحد عليه، وتشفى نفسه كما وصف:

وَلَقَـــدْ شَـــفَى نَفْـــسي وَأَبْـــرَأ سُـــقمَها قِيْلُ الفَـــوارِسِ: وَيـــكَ عَنْتَـــرَ أَقْـــدِمِ[٤]

وبين دعاء قومه واستجابته لنصرتهم تكمن ألذ لحظات الشاعر:

وَفي الغَزو أَلقـــى أَرغَـــدَ العَـــيش لَـــذّةً وَفي المَجدِ لا فـــي مَـــشرَبٍ وَطَعـــامِ[٥]

لذا نرى هذا الإلحاح تخليدًا للحظة الحرية وانتشاء بها ومطلًا لها وإشهارًا وإعلانًا وإرغامًا على التسليم بها:

يَـــدْعُونَ عَنْتَـــرَ والرِّمَـــاحُ كَأَنّهَـــا أَشْـــطَانُ بِئْـــرٍ فِـــي لَبَـــانِ الأَدْهَـــمِ

يَـــدْعُونَ عَنْتَـــرَ والـــسُّيُوفُ كَأَنَّهَـــا إِيمَـــاضُ بَـــرْقٍ فِـــي الـــسَّحَابِ الـــرُّكَّمِ

يَـــدْعُونَ عَنْتَـــرَ وَالـــدِّمَاءُ سَـــوَاكِبُ تَجْـــرِي بِفَيَّـــاضِ الـــدِّمَاءِ وَتَنْهَمِـــي

(١) القرشي، فارس بني عبس، ص ٤٩.
(٢) عنترة ، الديوان، ص٣٥.
(٣) عنترة ، الديوان، ص١١٦.
(٤) عنترة ، الديوان، ص١٨٤.
(٥) عنترة ، الديوان، ص١٩٠.

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالْفَوَارِسُ فِي الْوَغَى فِي حَوْمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ الْأَقْتَمِ

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرماح تنوشني عَادَاتِ قَوْمِي فِي الزَّمَانِ الأَقْدَمِ[1]

فأي نشوة تحملها (يدعون عنترة) وأي لذة تشهرها وتخلدها وترغم على الاعتراف بها (عادات قومي في الزمان الأقدم).

ثالثًا:إيتوس العاشق المغرم:

ولعل من كمال صورة الفارس البطل، صورة العاشق العفيف، فحضور عبلة في شعر عنترة المكثف ذو بعد حجاجي يسهم في إكساب عنترة مشروعية الوجود بين الفرسان في المجتمع الجاهلي، فهو جدير بأن يصبو وأن يكون له من تصبو إليه ، جدير بأن يعشق حرة نبيلة وأن يتغنى بها فهي حاضرة في شعره حضور الصواحب في الشعر العذري، فعبلة فاتحة النغم وبداية القول ومناط الحوار وصاحبة الحكاية، يفخر لها ويمدح بين يديها، وتخاتله في معترك الفرسان فتنتزع منه التفاتة والسيوف تقطر من دمه:

وَلَقَد ذَكَرْتُكِ والرّمَاحُ نَواهِلٌ مِنّي وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دَمي

فَوَدِدْتُ تَقبيلَ السّيُوفِ لأنّها لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ[2]

وشفيعه لديها رمح وخيل وسيف، هم شهوده ووسائل إقناعه بجدارته بحبها، فساحة الوغى قربان عنترة الذي يجعله بين يدي حبه إثبات جدارة واستحقاق، فهو مع عبلة يقنعها، ويقنع غيرها بها، يقول:

أعَبلَةُ لَو سَأَلتِ الرُمحَ عَنّي أَجابَكِ وَهوَ مُنطَلِقُ اللِسانِ[3]

ويقول:

أَلا يا عَبلَ لَو أَبصَرتِ فِعلي وَخَيلُ المَوتِ تَنطَبِقُ اِنطِباقا

سَلي سَيفي وَرُمحي عَن قِتالي هُما في الحَربِ كانا لي رِفاقا

سَقَيتُهُما دَماً لَو كانَ يُسقى بِهِ جَبَلا تِهامَةَ ما أَفاقا

(١) عنترة ، الديوان، حاشية ص ١٨٢.

(٢) عنترة ، الديوان، ص١٨٦.

(٣) عنترة ، الديوان، ص١٩٧

وَكَـــم مِـــن سَـــيِّدٍ خَلَّيـــتُ مُلقـــىً يُحَـــرِّكُ فـــي الـــدمِ قَـــدَماً وَســـاقا[1]

ويقول:

أَثنـــي عَلَـــيَّ بِمَـــا عَلِمـــتِ، فـــإِنَّني طَـــبٌّ بِأَخْـــذِ الفـــارِسِ المُـــستَلْئِمِ

فـــإِذا ظُلِمـــتُ فـــإِنَّ ظُلمَـــيَ باسِـــلٌ مُـــرٌّ مَذَاقَتُـــهُ كَطَعْـــمِ العَلْقَـــمِ

فـــإِذا شَـــرِبْتُ فـــإِنَّني مُـــسْتَهلِكٌ مـــالي وعِرضِـــي وافِـــرٌ لَـــمْ يُكلَـــمِ[2]

هكذا يستخدم عنترة مع عبلة في إقناعها ذات الحجج التي استخدمها فخرًا وحماسة مع القبيلة والأعداء،حجج القوة والقيم، فمشاهد العنف تحوط غزله وتوجهه، ونجد ذلك دليلًا على أن وجود عبلة في شعره لم يكن مستهدفًا بالخطاب فحسب، بل كانت استراتيجية مهمة في خلق صورة الفارس العاشق، وتحقيقًا لاستحقاق الشاعر العالي للمنزلة،ولا استحقاق أعلى من قبول حرة نبيلة به، ينسبها لنفسه ويخاطبها ويرى نفسه جديرًا بها؛ لذا لا نجد سياقها سياق عاشق فحسب؛ بل سياق محارب أرغم أنف مجتمعه ليعترف به:

وَتَـــذَكّرتُ عَبلَـــةً يَـــومَ جـــاءَت لِـــوَداعي وَالهَـــمُّ وَالوَجـــدُ بـــادي

وَهيَ تُـــذري مـــن خيفَـــة البُعـــد دَمعـــاً مُـــستَهِلّاً بِلَوعَـــةٍ وَسُـــهادِ[3]

ثم إن هذا الغزل جزء من طبع بيان الشعراء الفرسان، يقول البستاني في شرح منطق الفرسان في إقناع محبوباتهم" فإذا نسب بحبيبته لا يرى شيئًا يغويها به أفضل من غزواته ومعاركه فيعرضها أمامها مباهيًا بفروسيته فيمتزج الغزل بالحماسة وتصطبغ عرائس الوحي بغبار المعارك ودماء الفرسان[4]"

في المقابل نقل عنترة عشقه إلى ساحة المعركة كما نقل العنف لساحة الحبيبة فيهيم برمحه، ويطرب لصوت سيفه، ويكون طعم الموت في فمه شهدًا، وغبار المعركة في أنفه ندًّا ،يقول:

فَـــإِنّ غُبـــارَ الـــصافِناتِ إِذا عَـــلا نَـــشِقتُ لَـــهُ ريحـــاً أَلَـــذّ مِـــنَ النَـــدِّ[5]

(١) عنترة ، الديوان، ص١٠٤.
(٢) عنترة ، الديوان، ص١٦٧-١٦٩.
(٣) عنترة ، الديوان، ص٦٠.
(٤) البستاني، الشعراء الفرسان، ص٩.
(٥) عنترة ، الديوان، ص٥٨.

ويقول:

وَتُطرِبُنـــي سُـــيوفُ الهِنـــدِ حَتّـــى أَهـــيمَ إِلـــى مَـــضارِبِها اِشـــتِياقا

وَإِنّـــي أَعـــشَقُ الـــسُمرَ العَـــوالي وَغَيـــري يَعـــشَقُ البـــيضَ الرِشـــاقا

وَكاســـاتُ الأَسِـــنّةِ لـــي شَـــرابٌ أَلَـــذُّ بِـــهِ اِصـــطِباحاً وَاِغتِباقـــا[1]

وكأنه يعيد تعريف الأشياء، فصوت السيوف موسيقى تعزف وتطرب فيشتاقها، ودماء الرجال على أطراف الأسنة خمرًا تدار يثمل بلذتها، والمعشوقة الرمح تتهادى لا البيض الحسان، يقول:

فَاِســـقِياني لا بِكَـــأسٍ مِـــن دَمٍ كَـــالأُرجُوانِ

أَســـمعاني نَغمَـــةَ الأَس يـــافِ حَتّـــى تُطرِبـــاني

أَطيَـــبُ الأَصـــواتِ عِنـــدي حُـــسنُ صَـــوتِ الهِنـــدُواني

وَصَـــريرُ الـــرُمحِ جَهـــراً فـــي الـــوَغى يَـــومَ الطِعـــانِ

وَصِـــياحُ القَـــومِ فيـــهِ وَهـــوَ لِلأَبطـــالِ دانـــي[2]

ويقول:

بَهاليلُ مِثـــلُ الأُســـدِ فـــي كُـــلِّ مَـــوطِنٍ كَأَنَّ دَمَ الأَعـــداءِ فـــي فَمِهِـــم شَـــهدُ[3]

فالشهد في الفم من الصور الذائعة في تشبيه لذة ريق الصاحبة في باب الغزل نقله عنترة لوصف حلاوة دم الأعداء في أفواه فرسانه.

وإن أسهم مثل هذا في بناء إيتوس الفارس المهيب المتلذذ بدماء أعدائه، ثابت الجنان في لقائهم، فصوت فزع المعارك معزوفة طرب في أذنيه، إلا أنه كاشف عن موطن عشق الشاعر الحقيقي، وموطن لذته وطبيعة التركيبة النفسية التي يجسدها غزل الفرسان، بالإضافة إلى أن خلط عنصري القوة والعنف مع التهالك والأسى من أقوى مركبات الشعر ملكًا للقلوب وتأثيرًا فيها، ولا يعني هذا خلو غزله من شعر رقيق، تكون رقته

(١) عنترة ، الديوان، ص١٠٤.

(٢) عنترة ، الديوان، ص١٩٩.

(٣) عنترة ، الديوان، ص٥٤.

وتهالك صاحبه، وبقائه على العهد أكبر حجة مقنعة يقدمها لمحبوبته بقبول هوى ملك قلبه ، فلا أعذب من قوله:

وَأَلــثِمُ أَرضــاً أَنــتِ فيهــا مُقيمَــةٌ لَعَلّ لَهيبي مِــن ثَــرى الأَرضِ يَبــرُدُ[1]

وقوله:

وَغَرامــــي بهــــا غَــــرامٌ مُقــــيمٌ وَعَــــذابي مِــــنَ الغَــــرامِ المُقــــيمِ[2]

ولعل من أجمل مقطَّعاته في هذا الباب قوله:

خَليلَــيَّ أَمــسى حُــبُّ عَبلَــةَ قــاتِلي وَبَأســي شَــديدٌ وَالحُــسامُ مُهَنَّــدُ

حَــرامٌ عَلَــيَّ النَــومُ يــا اِبنَــةَ مالِــكٍ وَمِن فَرشُهُ جَمــرُ الغَــضا كَيــفَ يَرقُــدُ

سَــأَندُبُ حَتّــى يَعلَــمَ الطَيــرُ أَنَّنــي حَزينٌ وَيَرثــي لــي الحَمــامُ المُغَــرِّدُ[3]

وقوله:

وَلَــــولا أَنَّنــــي أَخلــــو بِنَفــــسي وَأُطفــــئُ بالــــدُموع جَــــوى غَرامــــي

لَمُــتُّ أَســىً وكَــم أَشــكو لِــأَنّي أَغــارُ عَلَيــكِ يــا بَــدرَ التَمــامِ

أَيــا ابنَــةَ مالــك كَيــفَ التَــسَلّي وَعَهــدُ هَــواكِ مِــن عَهــدِ الفِطــامِ[4]

(١) عنترة ، الديوان، ص٦٦.
(٢) عنترة ، الديوان، ص١٩٢.
(٣) عنترة ، الديوان، ص٥٤
(٤) عنترة ، الديوان، ص١٨٧.

الخاتمة:

ونخلص من مجمل الدراسة إلى أن :

إيتوس عنترة القبلي ارتكز على ثلاثة ملامح :سواده،فروسيته، وشاعريته؛ حيث نجد الغلبة لعناصر القبول والتسليم بإزاء الرفض والإحجام فيكون المحيط مهيئًا لقبول خطابه والإقبال عليه ، ثم نجد إيتوس عنترة الخطابي مجيبًا لكل ذلك ، فتحضر العبودية والسواد، والفروسية والبطولة، والعشق والغرام لتتعاضد فيما بينها فتكون مكانيزمات الإقناع والاستمالة والاستهواء بالاعتماد على حجتي القوة والقيم فيكون فيها الكفاية في مجتمع يقدس القوة ويعلي الفروسية ويهيم بالبطولة.

قائمة المصادر والمراجع :

- **أرسطو:**

فن الخطابة ،تحقيق عبد الرحمن بدوي ،وكالة المطبوعات ،الكويت ودار القلم ، بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٧٩م.

- **ابن أبي الأصبع ، عبد العظيم بن عبد الواحد:**

تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي .

- **الأصفهاني، أبو الفرج:**

الأغاني ،شرحه وكتب هوامشه عبد أ. علي مهنا، سمير جابر و يوسف علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٥، ٢٠٠٨م.

- **الأعلم الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان:**

أشعار الشعراء الستة الجاهليين، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان.

- **الأمين ، محمد سالم:**

مفهوم الحجاج عند "بيرلمان "وتطوره في البلاغة المعاصرة،مجلة عالم الفكر، العدد: ٣ · تاريخ الإصدار:١ يناير ٢٠٠٠·

الحِجَاج؛ مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، حافظ إسماعيل علوي(مشرف) مجموعة من المؤلفين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.

- **الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم:**

شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق : بركات يوسف هبود، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١ ، ٢٠٠٥م.

- **الأندلسي، ابن سعيد:**

نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن.

- **باتريك شارودو –دومينيك منغنو:**

معجم تحليل الخطاب .ترجمة: عبد القادر المهيري – حمادي صمود وآخرون، المركز الوطني للترجمة،تونس، ط١، ٢٠٠٨م.

- **بارت، رولان:**
البلاغة القديمة ، ترجمة عبد الكريم الشرقاوي، مطبعة النجاح الجديدة بمساهمة القسم للسفارة الفرنسية بالمغرب، ط١، ١٩٩٤م.
- **بدوي ، عبده :**
الشعراء السود وخصائصهم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٧٣م.
- **البستاني، بطري:**
الشعراء الفرسان، دار المكشوف ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٤٤م.
- **البغدادي ،عبد القادر :**
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧ م.
- **البلاذري، أحمد بن يحيى:**
جمل من أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار، ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
- **الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد :**
لباب الآداب ، تحقيق: أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان،ط١،١٩٩٧ م.
- **الجمحي، محمد بن سلام:**
طبقات فحول الشعراء، تحقيق : محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
- **حسوني ، شيماء زاحم:**
عقد الشعراء النفسية المُركبّة،عنترة أنموذجا، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد (٣٧٦) ٢٠١٩م.
- **الخفاجي ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان:**
سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٢م.
- **خليف، يوسف:**
الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط٤.
- **الدريدي، سامية:**
الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة: بنيته وأساليبه ، عالم الكتب الحديث ، أربد، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.
- **الدهري، أمنية:**
الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٠م.

- **الريفي،هشام:**
الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود، (مشرف) مجموعة من الباحثين، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب ،منوبة ، (د.ط)(د.ت) .
- **الزوزني،حسين بن أحمد :**
شرح المعلقات السبع، تحقيق: محمد علي حمد الله ، المكتبة الأموية ،دمشق، سوريا، ١٩٦٣م.
- **زيعور، علي:**
قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، المستعلي والأكبري في التراث والتحليل النفسي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٢م.
- **سليم، فاروق أحمد :**
الانتماء في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، ط١،١٩٩٨م.
- **صولة، عبد الله:**
الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة ،لبيرلمان وتيتيكا، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود (مشرف) مجموعة من الباحثين، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب، منوبة، (د.ن) (د.ت)
في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكلياني للنشروالتوزيع،تونس، ط١، ٢٠١١م.
- **العبسي، عنترة بن شداد:**
ديوان عنترة بن شداد ، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- **العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله :**
ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، ط١.
الصناعتين : الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
- **علي، جواد:**
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جامعة بغداد ، العراق، ط٢، ١٩٩٣م.

- **قادا ، عبد العالي:**
بلاغة الإقناع، دراسة نظرية تطبيقية، دار كنوز المعرفة، عمان ، الأردن، ط١، ٢٠١٦م.
- **ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله :**
الشعر والشعراء،دار الحديث، القاهرة،٢٠٠٢م.
- **القرشي، حسن عبد الله:**
فارس بني عبس ، دار المعارف، مصر ، ط٢، ١٩٦٩م.
- **القيسي، نوري حمودي:**
الفروسية في الشعر الجاهلي ، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ، العراق ، ط١، ١٩٦٤م.
- **المخزومي، مهدي:**
في النحو العربي : نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٦م.
- **مانجينو ،دومينيك** :
مشكلات الحجاج بواسطة الإيتوس، من البلاغة إلى تحليل. الخطاب، ترجمة حسن المودن، ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، دار كنوز. المعرفة، الأردن،ط٢، ٢٠١٦م.
- **مشبال، محمد :**
خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية ، دار كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن ، ط١، ٢٠١٥م.
في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطاب،دار كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن، ط١ ، ٢٠١٨م.
- **ابن منقذ، أسامة:**
لباب الآداب ،تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة ، ط٢ ،١٩٨٧م.
- **الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد :**
مجمع الأمثال،تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعروفة،بيروت، لبنان.
- **ناصر، عمارة:**
الفلسفة والبلاغة : مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي ، منشورات دار الاختلاف العربية للعوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط١ ، ٢٠٠٩م.
- **الوظيفي، أحمد:**
الحجاج بالإيتوس في شعر النسيب: نونية ابن زيدون نموذجاً، ضمن التحليل الحجاجي للخطاب، بحوث محكمة، دار المعرفة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٦م.